معهد مولاي الحسن

عبد الله كنون

واحة الفكر

تطوان 1367 = 1948

عبد الله كنون

واحة الفكر

1367 :: 1948

المطبعة المهدية ـ محمد الطريس 19 تطوان (المغرب)

واحة الفكر

نفر من صخب الحياة وضوضائها الى صمت الطبيعة الحكيم وسكوتها البليغ.

ونفر من جلبة النهار الى هدأة الليل ومن ضغط الجو في المدينة الى الهواء الطلق في القرية.

ونفر من حمارة القيظ في الصحراء القاسية الى حيث الظل الظليل والهواء العليل في الواحة الحنون.

فاذا أجهدنا الفكر وأضجرنا النظر وسطا الخمود على نشاطنا العقلي فاننا نفر الى هذا الادب فنحس الجمام والمتعة والقوة!

انه وادي عبقر، نلتقي فيه بظلال انفسنا أشخاصا ماثلة امامنا تتحدث الينا ونفهم عنها، فكم تكشف لنا من اسرار يعجز عن ادراكها تفكيرنا المقيد بقواعد المنطق وكم تظهرنا على عوالم سحرية نتلمح أثارة منها في عالم الرؤيا العجيب..

في فجاج ذلك الوادي الفسيح نسمع نغما موسيقيا عذبا، ونشاهد هيكلا ربانيا تنتصب فيه تماثيل من الحقائق العليا، وتقام صلاة الفكر فيخشع الضمير وتحلق الروح في الاجواء غير المنظورة حيث ترود مستقر الخلود في عالم الطهر والقداسة.

ولانها رحلة على مثل جناح البراق فان اولها هو منتهاها وهكذا تستمر الزيادة ويستمر معها السمو ولا «هبوط من المحل الارفع» الذي تحدث عنه الشيخ الرئيس!

وفي الشعاب الشجراء من واحتنا هذه، فتمثل مواكب الامل وأطياف الذكرى رائحة غادية ولحركتها هزيج كألحان الملائكة ولالتفاتها بريق كضحكات العذاري فكلما تطلعنا الى جمالها الريان بارواحنا الظامئة هبت علينا نسمات منعشة من عطره الفواح فجذبتنا اليه فلا نشعر الا ونحن صرعى تحت إغواء بريء!

هذه هواية تضمحل أمامها جميع هواياتنا المختلفة، ولا ندري اذالك من قوة تاثيرها فقط ام لانها هي هوايتنا الحقيقية!؟ وكما يتبارى الندامى في حضرة الشراب فيستحثون الكؤوس كلما زادت نشوتهم فان الاديب يتضلع من حوض المعرفة وتفيض جامه حتى تسيل وهو مع ذلك يستسقى كالهامة، فان لم يكن كذلك فهو دعى مدع في هوى ليلى ووصلها.

واذن فهل من يقرأ للمشاركة الادبية ويتأدب للترف العقلي يكون اديبا؟

لا يا سيدي؛ فان الادب رسالة أسمى من هذه الارضيات واعمق من هذه السطحيات!

اننا ما فررنا اليه الا لاننا نعتده طب القلوب وبلسم الارواح فالعالم يستريح اليه من جهود تجاربه المضنية، والفيلسوف يصحح أوهامه فيه، والرياضي والطبيب كلاهما يروضان به أعصابهما الثائرة وافكارهما المضطربة!

إن دعوته لتدخل الى اكواخ الفقراء وقصور الاغنياء فتملأ

نفوس اولئك بالرضى والتسليم وتفتح قلوب هؤلاء للعطف والمرحمة. وانها لتستحيل الى يد رفيقة تربت على اكتاف الحزانى فتلاشى احزانهم وتشعرهم بالغبطة والسرور وتمسح دموع الثكالى فيجدن لها برداً وسلاما وتتنزل السكينة على قلوبهن !

نحن نبخس الادب حقه اذا اعتبرناه ملهاة نقتل بها الوقت، وضربا من ضروب الكمال في حياتنا العقلية على حين انه روح الثقافة وجوهر المعرفة. واذا كنا نستجم به النفس من عناء الفكر فلان ضرورات الحياة من سياسية واجتماعية وغيرها لا تكاد تسلمنا اليه الا على حالة من الاجهاد لا توصف.

فهنيئا لمن صافاهم الزمن فتمتعوا بجو الواحة الرائق ولم يكابدوا سموم الصحراء اللافح !...



المسلمون والنبي

بعض الباحثين شغفوا بالاغراب ليقال عنهم انهم مجددون حتى اذا لم يواتهم الموضوع الغريب عمدوا الى الشيء يكون من الشهرة بالمكان الذي قالت فيه الخنساء «كانه علم في رأسه نار» فألبسوه حلة الغرابة بالرغم عنه وفرضوا على الناس فرضا ان يعتقدوا انه شيء غريب يعني جديد مبتكر على غير مثال سابق.

من هؤلاء الدكتور زكي مبارك الذي زعم ان الرسول صلى الله عليه وسلم لا زال لم يدرس من ناحيته الانسانية وان المسلمين لم ينظروا اليه الا على اعتبار انه رسول مؤيد من الله في القول والفعل لا ياتي شيئا ولا يذره الا بوحي من السماء فهو بذلك مجرد او كالمجرد من صفة الانسانية في جميع افعاله وتصرفاته(1).

ما ادري هل يجد الدكتور ام يهزل؟ فاما اذا كان يهزل فان هزله غير المفهوم كان احرى به ان يتناول موضوعا آخر غير موضوع الرسول، وهو الذي يريد ان يكون مومنا تقيا لا يمنعه من اعلان تقواه الانجا فيه عن الرياء وما اليه. واما ان

(1) انظر مقاله «النواحي الأنسانية في الرسول» بالعدد الممتاز من مجلة «الرسالة» المصرية رقم 297 وقد نشر هذا الرد بعدد ممتاز من جريدة «المغرب».

كان يجد فيظهر انه نسي مراجع السيرة النبوية من القرآن والحديث وغيرهما وبنى حكمه على بعض ما يرد في الاشعار الصوفية والقصص المولدية ونحوها. ونقول نسي فقط ولا نقول انه يجهل تلك المراجع لانا نعلم انه قد درسها او بعضا منها في الازهر لما كان «الشيخ» زكي مبارك قبل ان ينال شرف الدكتوراه التي اركبته هذا المركب الصعب.

«لقد جاءكم رسول من انفسكم» هذه الآية وحدها كانت ولا زالت تمنع المسلمين من اعتقاد شيء مما توهمه الدكتور في الرسول ومع ان بعضهم قراها بفتح الفاء فان احدا لم يفهم من تلك القراءة الا ان الرسول هو من انفس العرب اي اشرفهم حسبا ونسبا.

وفي الآية الاخرى «وقالوا لن نومن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تاتي بالله والملائكة قبيلا او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نومن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا» فلم يقتصر على اثبات عجزه عن الاتيان بهذه الامور التي طلبوها منه بل اكد ذلك بالتعجب من طلبهم منه وهو بشر مثلهم ما لا يطيق، والمسلمون الذين قرأوا ويقرأون هذه الآيات التي تنادي بانسانية الرسول وكونه بشرا من الخلق لا ينسون هذه الحقيقة الا اذا نسوا

آيات الله ولا يعتقدون خلافها في حقه الا اذا لم يبقوا مسلمين، فيكف يمكن ان تقوم دراستهم له على غير هذا الاساس او ينظروا اليه نظرة مجردة عن هذا المعنى وهو مبدأ ايمانهم به وغاية علمهم فيه:

فمبلغ العلم فيه انه بشر وانه خير خلق الله كلهم

«عفا الله عنك لم اذنت لهم» هذا ضرب آخر من الخطاب الكريم الذي يعرف به المسلمون ان الرسول هو انسان مثلهم يخطئ ويصيب وليس كما ينسب لهم الدكتور انه لا يعمل عملا الا باذن من الله، اذ لو كان كذلك لما عاتبه الله عز وجل ولو بهذا الاسلوب اللطيف الذي اخبره فيه بالصفح قبل ان يخبره بالعتب.

ومثله ايضا قوله تعالى «ما كان لنبيء إن يكون له اسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم».

واعظم من هذا وذلك قوله تعالى في حقه «عبس وتولى ان جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى اما من استغنى فانت له تصدى وما عليك الا يزكى واما من جاءك يسعى وهو يخشى فانت عنه تلهى» فهذه الآية التي تثبت اكثر من غيرها بشرية الرسول وتقرر طبيعته الانسانية ابلغ تقرير، لن يغفل المسلمون عنها اصلا لا سيما وهي تلفت نظرهم

الى ان تصرفا عاديا مثل هذا قد استحق عليه الرسول ذلك العتاب المر وان كان هو على ما يرى بعضهم انما فعله تاليفا لذلك الغني واملا بدخوله في الاسلام.

واخيرا الم يقل الرسول في حديثه « لا تطروني كما اطرت النصارى عيسى ولكن قولوا عبد الله ورسوله» وقال «انما انا عبد آكل كما ياكل العبد واجلس كما يجلس العبد» وقال «انما انا بشر وانكم تختصمون الي فلعل بعضكم ان يكون ألحن بحجته من بعض فاقضي له على نحو ما اسمع» وقال «انما انا بشر مثلكم وان الظن يخطيء ويصيب ولكن ما قلت لكم قال الله فلن اكذب على الله» وقال «والله وانا رسول الله ما ادري ما يفعل به او بي» وقال «يا عائشة ما لي وللدنيا اخواني من اولى العزم من الرسل صبروا على ما هو اشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فاكرم مآبهم واجزل ثوابهم فاجدني استحيي ان ترفهت في معيشتي ان يقصر بي غدا دونهم وما من شيء هو احب الي من اللحوق باخواني واخلائي» فهو ينهي عن اطرائه كاطراء النصارى لعيسى، ويتواضع حتى يتشبه بالعبد ويقول انه لا اطلاع له على الباطن وانما يقضي بحسب الظاهر وان ظنه يخطيء ويصيب وانه يجهل عاقبة الامر والجزاء ويعمل لادراك غايات النبيين من قبله، وكيف ترى المسلمين الذين تناقلوا عنه هذه الاقوال وخلافها مما لم نشأ ان نكثر به يغفلون عنها ويتناسونها فلا يعتبرون

فيه الا جانب النبوة والرسالة ويلغون صفة الانسانية والبشرية؟ ومتى كان المسلمون يهملون اقوال نبيهم ويمزون بها هكذا مر الكرام وهم قد كتبوا عليها من الشروح والتفاسير واستنبطوا منها من الاحكام والحكم ما يبهر العقول ويحير الالباب؟

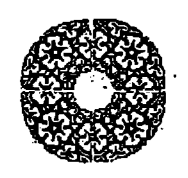
وبناء على ذلك يقرر المسلمون ان النبي «انسان» اوحى اليه بشرع، فجعلوا جنس الجد انسانا، ثم عللوا ما يصيب النبي من المصائب الدنيوية وما يلحقه من اذى شرار الخلق بان حكمته تسلية المومنين وتاسيهم به في مثل تلك الاحوال اذ انهم بشر مثله في الانسانية وان لم يبلغوا درجته في الاختصاص فاحرى ان يصيبهم مثل ما اصابه من الاذى والضر فيصبروا ويحتسبوا.

واذاً فهل فرق ما بين عامة البشر والرسول عند المسلمين الا ما اشار له في الآية الكريمة «قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي؟» بل لقد اشار الرسول الى مزية البشرية المجردة في بعض الاحوال بقوله: «انتم اعلم بامر دنياكم» فمن اين يتطرق الخطأ للمسلمين مع هذه الصراحة العظمى؟

وهل اتاك نبأ ان الرسول لم يهنأ باتصافه بصفة النبوة وحده ولم يعجبه اختصاصه بهذه الفضيلة دون سائر البشر فرضخ لهم منها بقدر ما يحتاجون اليه في امورهم الخصوصية وبعض الضرورات الادبية والتربوية فقال «الرؤيا جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوة» وقال «ان من امتي ملهمين» وقال «الحلم والتؤدة والقصد من اخلاق النبوءة» وبهذا تعرف نظر

النبي نفسه الى النبوة فإنها حالة صادقة من التلقي والتخلق ليس غير وكذلك يفهمها المسلمون وان نسب اليهم الدكتور خلاف ذلك. فياليته لم يكن صاحب هذا الرأي بل كان صاحبه هو (فنسك) او (لا منس) اذا لهان الخطب .

وبعد فان كان الدكتور زكي مبارك يقصد بالمسلمين الذين لا يفرقون بين رسالة النبي وانسانيته ، هؤلاء الشعراء المتصوفين الذين يجمعون في اقوالهم بين المبالغة والغلو والايغال او قصاص الموالد الذين يعتمدون التاثير على العامة بانواع الخوارق والمعجزات فانه يعلم حق العلم ان كلام كل من الفريقين ليس مما يعتمد في النقل ولا يثبت عند النقد .



تاريخ حياة معدة لتوفيق الحكيم

لا يفهم القاريء انه امام كتاب تاريخ حقيقي يسجل الحوادث بضبط ويستعرض الوقائع بامانة، اذن فيكون يجهل توفيق الحكيم الكاتب الموهوب والفنان المقتدر الذي ورخ النبي ولم يشتمل كتابه على رقم تاريخي واحد ولو كان رقم سنة الطبع.

انما هذه فكاهات وملح مما يروى في التطفيل واخبار الطفيليين جمعها المؤلف في نسق واحد وحاول ان يجعل منها قصة واحدة يكون «اشعب» الطماع بطلها ولم يخلها من ذكر الحب والحبيبة كما قسمها تقسيم القصص الى فصول، ولكن كل ذلك لم يجعل منها قصة متلائمة الاجزاء مرتبطة الاطراف ذات عقدة ينتظر حلها بمهارة وحذق كما يجب ان تكون القصة فان حوادث الفصل الواحد قد يضطر المؤلف الى بذل جهد ظاهر للتوفيق بينها وترتيب بعضها على بعض فما بالك بالفصول التي تستقل في غالبها ولا يكون بينها ارتباط ما او تسلسل اللهم الا وحدة الموضوع الذي هو التطفيل دائما.

ولا نقول ان الفن خان صديقه او تركه في هذه المرة، فان توفيق الحكيم وان سمى كتابه هذا في مقدمته «قصة» يعرف ان اسم القصة الاصطلاحي لا ينطبق عليه ولهذا تفنن في اسمه فدعاه «تاريخ حياة معدة» اذ سلب لفظة تاريخ دلالتها

المطابقية كما يفعل الفن بكثير من الالفاظ في كثير من الاحيان ولم يدعه «حياة معدة» فقط ليلا يتمحض للرواية الخالصة فبقي التاريخ هنا «كالتجريد» للاستعارة الذي يلائم المستعار له كما يقول اهل البيان وكان هذا الاسم من لطيف افتنان توفيق الحكيم.

نعم ان هناك اشياء لا نوافق المؤلف عليها منها ان ينسب كثيرا من وقائع التطفيل ونوادر أصحابه لاشعب ورفيقه (عند المؤلف والا فبينهما بون بعيد في الزمن) بنان. ومع انه تقدم ببنان الى عصر اشعب فجعله رفيقه وقرن بينهما في كثير من احوال العيش وانواع التحايل على الطعام وموائد الكرام، فانه تاخر باشعب الى ما بعد عصره بكثير وجعله يحيى في عهد المامون بالصراحة وما بعده بالتلويح كما يفهم مما نسب اليه من اخبار واشعار لغيره ممن نعرف تاخرهم عنه. على انا قد نقبل ـ لوجه الصنعة الفنية ـ ان ينشد اشعب او ان ينحل ما لغيره ولو تاخر عنه الا اننا لا نقبل ان يقام غير مقامه في حضرة ملك لم يعش في عصره، وذلك في كتاب يطلق عليه ولو مسامحة «تاريخ».

فكان على المؤلف ان يعدد اشخاص الرواية ويجعل حوادثها تقع في جيلين او ان يكتفي بحوادث اشعب وينحله مالم يعرف صاحبه من غير حوادثه واما الواجب الحتم فهو ان

لا يذكر اسماء اشخاص يعرف الجميع ان اشغب لم يعاصرهم وانهم لم يعاصروه.

وناحية اخرى لا نغفل التنبيه عليها وهي هذا الخطأ في الاعراب الشائع في الكتاب. ولا يقل لي احد ان هذا امر هين، فما هو بالهين في حق كاتب يعد من الاعلام وهل يتم الفن الا اذا كان جامعا لشرائط الحسن حتى الكمالي منها بل أنه انما يتحقق وجوده بهذا الكمالي الذي لا يمكن التهاون به اصلا. ولله در العقاد اذ يقول في كتاباته اننا لا نرى كاتبا غربيا يتساهل في اتباع قواعد لغته تساميا بفنه عنها او تجاهلا لها فنحن كذلك يجب ان نكون.

فمثلا هذا الشطر: ما زلت آخذ روح الدن من لطف

صوابه في لطف.

وهذا الشطر: والدن مطرح جسم بلا روح

صوابه والدن مطرح جسما بلا روح

ومثل هذا التصحيف وارد خطأ في كلام المؤلف

وهذا البيت:

انا التي لم ير مثلي بشر   كلامي اللؤلؤ حين ينتشر

ظاهر ان صواب كلمته الاخيرة ينثر

وقوله «ذراعين الى داخل خيره» صوابه ذراعان. وقوله «وليس يناديه الاتجار عمله مستورون» صوابه مستورين

وهذا البيت:

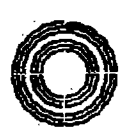
هذا محبك مطوى على كمده　　　حرا مدامعه تجري على جسده

صـوابـه:

هذا محبك مطويا على كمده　　　وجدا وادمعه تجري على جسده

كما نحفظه او حزنا مدامعه او حرى مدامعه مما يمكن ان يكون تصحف على المؤلف.

الى غير ذلك مما يثقل تتبعنا له وعلى كل حال فقد جمع المؤلف من اطايب اخبار التطفيل مـا جعل كتابه شهيا يلتهمه القارئ المنهوم في ساعة وبعض ساعة وان كان لم يمزج بينها ويخلطها حتى تكون عجينـة واحدة كما زعم هو.



فنون من القول يسبق لها اهل الاندلس

لا مشاحة في ان اهل الاندلس كانوا قد تمكنوا من ناحية اللغة وظهروا على امرها فتصرفوا فيها احسن التصرف وانقادت اليهم كل الانقياد فتفننوا في اساليب الكلام ما شاءوا ولم يبق باب من القول لم يطرقوه شعرا كان او نثرا حتى لقد شأوا في بعض الصور البيانية المشارقة انفسهم الذين هم ارباب اللسن والفصاحة وعنهم اخذت اللغة وبارضهم نزل الوحي. وحسبك دليلا على ذلك ابيات ابن عبد ربه التي لما سمعها المتنبي قال «ايه يا ابن عبد ربه! لقد تأتيك العراق حبوا» وهي هذه:

يا لؤلؤا يسبي العقول انيقا ورشا بتقطيع القلوب رفيقا

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله درا يعود من الحياء عقيقا

واذا نظرت الى محاسن وجهه الفيت وجها في سناه غريقا

يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقا

وهذا شعر فحل من فحولهم وعبقري من رجالهم فما قولك في شعر سيدة من عقائلهم يدعيه اهل المشرق وينتحله ادباؤهم مع وصفهم شعر المرأة بالضعف اية كانت لم يستثنوا من ذلك الا الخنساء؟ وهذه السيدة هي كذلك خنساء المغرب

حمدونة بنت زياد المؤدب من وادي آش، وهذا الشعر هو قولها:

ولما ابى الواشون الا فراقنا ... وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على اسماعنا كل غارة ... وقل حماتي عند ذاك وانصاري
غزوتهم من مقلتيك وادمعي ... ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

وقولها وهو مشهور

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنى علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمأ زلالا ... الذ من المدامة للنديم
يصد الشمس انى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

وكلا الشعرين من شواهد علم البلاغة كما يعرف المتادبون وكلاهما ايضا مما انتحله او نحله هذا المدعو بالمنازي، ولكن كتاب الاندلس ومؤرخي ادابها قد نبهوا على ذلك الانتحال، وناضلوا عن صاحبة الحق فيه اي نضال، واذا دل هذا على شيء فانما يدل على موهبة اهل الاندلس وابداعهم في الشعر والخيال، بما قصرت عنه همم فرسان هذا المجال.

وكل هذا مقبول ومنقول، ومعروف وموصوف؛ اما الذي قد يخفى على الناس ولا يكاد يتنبه له الا الخاصة من الباحثين، فهو فنون من القول سبق اليها الاندلسيون فلم يتاثروا فيها احدا واتوا بها على غير مثال تقدم فاصبحت تعد من اختراعهم وتحسب من ابتداعهم الذي اغربوا به على من

سواهم من الاقطار العربية، ولم يسع اهلها ولو كانوا من اعرق الناس في البلاغة والادب كاهل العراق الا الاعتراف بفضلهم بذلك والتنويه بشأنهم وتاثر خطاهم والنسج على منوالهم ولأجل الايضاح نقسم الكلام في هذا الغرض الى ثلاثة اقسام:

1) الشعر

2) النثر

3) النظم

فاما الشعر فانه فضلا عما لهم فيه من الصور والمعاني المستطرفة المستجادة قد ابتكروا فيه ابتكارين احدهما في المعنى والآخر في اللفظ. فالذي في المعنى غرض جديد من اغراض الكلام اضافوه الى الشعر العربي واكثروا فيه القول حتى صار عندهم بابا مستقلا من أبواب الشعر لم يرو لغيرهم من شعراء الاقطار الاخرى فيه شيء ولم يفطن له ادباء العربية الا في العصر الاخير، عصر الانبعاث العربي، وهذا هو الشعر الوطني السياسي، وقد افردناه ببحث نشرناه منذ مدة فلا حاجة بنا الى بسط القول فيه الآن.

والذي في اللفظ ما توفقوا اليه من ابتكار الموشحات التى كانت تجديدا حقيقيا في اسلوب الشعر العربي وطريقة نظمه يعرفه كل معان للنظم على ما يوجبه العروض والقافية من قيود وشروط حتى بذلك تأخر الشعر العربي عن مجاراة اشعار الامم الاخرى في بعض الاغراض التي يستحيل على الشاعر

العربي النظم فيها متقيدا بقيد القافية الثقيل كالملاحم والقصص والتمثيل . وبالعكس فانه بالموشح يمكنه ان يستوفي جميع هذه الاغراض ويطيل قصيده ما شاء من غير ان يشعر بعجز او كلل في الوزن او القافية بل يكون قد تفنن فيهما معا بما يزيد شعره سلامة وعذوبة ومكن لقارئه من تذوق معانيه وتفهم اغراضه في غير حرج ولا عناء .

قال الشيخ ابو الخطاب بن دحية « الموشحات هي زبدة الشعر ونسبته ، وخلاصة جوهره وصفوته ، وهي من الفنون التي اغرب بها اهل المغرب على اهل المشرق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق » .

وقال ابن خلدون «واما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه بالموشح ينظمونه اسماطا اسماطا او اغصانا اغصانا يكثرون من اعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ويلتزمون عدد قوافي تلك الاغصان واوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة . واكثر ماتنتهي عندهم الى سبعة ابيات ويشتمل كل بيت على اغصان عددها بحسب الاغراض والمذاهب وينسبون فيه ويمدحون كما يعمل في القصائد وتجاروا في ذلك الى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه. وكان المخترع له بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر واخذ عنه ابو عبد الله احمد

ابن عبد ربه صاحب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما. فكان اول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية، وقد ذكر الاعلم البطليوسي انه سمع ابابكر بن زهر يقول كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له:

بدر تم شمس ضحا غصن نقا مسك شم
ما اتم ما اوضحا ما اورقا ما انم
لاجرم من لمحا قد عشقا قد حرم

ثم ذكر ابن خلدون جملة من الوشاحين الذين اتوا بعد عبادة الى ان بلغ الى ابي بكر بن زهر فذكر موشحه الفريد المشهور عند اهل المشرق قبل اهل المغرب وهو :

ما للموله	من سكره لا يفيق	ياله سكران
من غير خمر	ما للكئيب المشوق	يندب الاوطان
هل تستعاد	ايامنا بالخليج	ولياليـنا
او تستفاد	من النسيم الاريج	مسك دارينا
واذ يكاد	حسن المكان البهيج	ان يحيينا
ونهر ظله	دوح عليه انيق	مورق فينان
والماء يجري	وعائم وغريق	من جنى الريحان

ثم ختم بذكر موشحة ابن الخطيب التي نسج فيها على منوال ابن سهل وهي :

جادك الغيث اذا الغيث همي   يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما   في الكرى او خلسة المختلس

****

واما النثر فقد تفردوا فيه بفن عجيب يصح ان نسميه بالنثر الرمزي او القصصي، وهو الذي يكثر الكاتب فيه من استعمال امثال العرب والاشارة الى اخبارهم وايامهم ويضمنه كثيرا من الابيات المفردة والمقاطع البليغة المشهورة مما لا يتأتى معه فهم المراد وفك المغلق من رسالة ذلك الكاتب الا لصاحب الاطلاع الواسع والاستحضار النادر والتبحر في فنون العلم والادب.

وذلك كما في رسالتي ابن زيدون الجدية والهزلية المشهورتين وكفى بهما شاهدا في هذا الباب. على ان قلائد الفتح بن خاقان تكاد تكون برمتها من هذا النمط ولذلك احتاجت الى الشرح فشرحها الاديب ابن زاكور الفاسي كما شرح الادباء رسالتي ابن زيدون.

ولقائل ان يقول ان هذا اسلوب عرفه كتاب العربية من قبل ابن زيدون في المشرق والمغرب. وانا لا انكر ان يكون بعض الكتاب قد استعمل في كتاباته كنايات وتلميحات من هذا القبيل، انما الذي ازعم التفرد به لكتاب الاندلس هو هذا الاكثار من تلك الكنايات والتلميحات والاقتباس والتضمين في الرسالة الواحدة حتى تصير رمزاً مغلقا كما قلنا على غير العالم المطلع، ولا سيما اذا كان الكلام مسجعا كانشاء الفتح

وغيره من رجال القلائد. وهذا الاسلوب لم نر من بذ فيه الاندلسيين حتى بعد بلوغه عندهم الى ذروة الكمال. وانما حسب الاتين بعدهم ان ينسجوا على منوالهم في النبذة المختصرة التي لا تبلغ ان تكون ربع رسالتي ابن زيدون فقط. ومثال من ذلك ما كتبه الوزير أبو جعفر بن عطية المراكشي الى مليكه عبد المومن بن علي يستعطفه وهو في السجن:

«تالله لو احاطت بي كل خطيئة، وأصبحت نفسي عن الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن في الوجود، وانفت لادم من السجود، وقلت ان الله لم يوح، في الفلك لنوح، وابرمت لاحتطاب نار الخليل حبلا، وبريت لقدار ثمود نبلا، وحططت عن يونس شجرة اليقطين، واوقدت مع هامان على الطين، وقبضت قبضة من اثر الرسول فنبذتها، وافتريت على العذراء البتول فقذفتها، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظاهرت الاحزاب بالقصوى من العدوة، وابغضت كل قرشي، واحببت لأجل وحشي كل حبشي، وقلت بان بيعة السقيفة، لا توجب امامة خليفة، وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة، واعتلقت من حصار الدار وقتل اشمطها بشعبة، وقلت تقاتلوا رغبة في الابيض والاصفر وسفكوا الدماء على الثريد الاعفر، وغادرت الوجه من الهامة خضيبا، وناولت من قرع سن الحسين قضيبا، ثم كنت بحفرة المعصوم لائذا وبقبر المهدي رضي الله عنه عائذا، فقد آن لمقالتي

ان تسمع، وان تغفر لي هذه الخطيآت اجمع، مع اني مقترف وبالذنب معترف:

فعفواً أمير المومنين فمن لنا   برد قلوب هدها الخفقان

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته »

وما كتبه الصلاح الصفدي في ترجمة ابي حيان النحوي المشهور:

« لو رآه يونس بن حبيب لكان بغيضا غير محبب، او عيسى بن عمر لاصبح من تقصيره وهو محدب، أو الخليل لكان بعينه قذاة، أو سيبويه لما تردى من مسألته الزنبورية برداه، أو الكسائي لاعراه حلة جاهه عند الرشيد وانساه، أو الفراء لفر منه ولم يقتسم ولذا المامون تقديم مداسه، او أبو عبيدة لما تركه ينصب لشعب الشعوبية، أو ابو عمرو لشغله بتحقيق اسمه دون التعلق بعربية او السكرى لما راق كلامه في المعاني ولا حلا، أو المازني لما زانه قوله ان مصابكم رجلا، او قطرب لما ذب في العربية ولا درج، او ثعلب لاستكن بمكره في وكره ولما خرج ... الخ » وهو كما رأيت متكلف بارد في بعض المعاني والاسجاع تكاد الغثاثة والتلفيق يغلبان فيه على الانطباع .

اما رسالتا ابن زيدون فهما من الشهرة بمكان فلا حاجة بنا الى ايراد شيء منهما وبوسع كل احد ان يرجع اليهما متى شاء في ديوانه وكثير من مجاميع الادب.

***

واما النظم ونعني به نظم العلوم فانهم قد اربوا على المشارقة وغيرهم اذ شاركوهم في مطلق النظم وتفردوا بنوع غريب يستعملون فيه رموزا واصطلاحات خاصة فيلمون في المنظومة الصغيرة والابيات القليلة بقواعد علم كامل من العلوم ويحصلون مسائله ويضبطون اصوله بحيث لو لم يتأتوا لها ذلك التأتي اللطيف ويسلكوا لها ذلك المسلك الغريب لما وسعتهم الكتب المطولة والموضوعات المبسوطة لاستيفاء تلك الاغراض وتحصيل تلك المقاصد. وانظر الى قصيدة (حرز الاماني) في القراءات السبع المعروفة بالشاطبية نظم ابي القاسم الشاطبي رحمه الله فانها على اختصارها جمعت زبدة القراءات واحتوت من ذلك على علم غزير، ولذلك تجد الكثير من اهل العلم يحفظونها وقد خضع لها كبار الشعراء والبلغاء، وحذاق اهل الرواية والقراء.

وقال ابن خلكان في ترجمة الشاطبي: «انه ابدع في حرز الاماني وهي عمدة قراء هذا الزمان في تعلمهم فقل من يشتغل بالقراءات الا ويقدم حفظها ومعرفتها. وهي مشتملة على رموز واشارات لطيفة وما اظنه سبق الى اسلوبها»

واصطلاحه رحمه الله هو الذي اشار اليه بقوله :

جعلت (أباجاد) على كل قارئ دليلا على المنظوم اول اولا
ومن بعد ذكر الحرف اسمي رجاله متى تنقضي آتيك بالواو فيصلا
سوى احرف لا ريبة في اتصالها وبالقيد استغنى عن القيدان جلا

ومن هذا الباب قصيدة (غرامي صحيح) لابن فرح الأشبيلي التي جمع فيها القاب الحديث باسلوب عجيب ومنهج غريب اذ سلك بها مسلك اهل الغزل في ظاهر اللفظ وحمل كل لقب من القاب الحديث على معنى يليق بهذا الغرض حتى لو القيت على عربي فصيح خالي الذهن من اصطلاحات اهل الحديث لما فهم منها الا معاني غزلية رقيقة تنشرح لها النفوس وتغتبط بها القلوب ومطلعها:

غرامي صحيح والرجا فيك معضل

وحزني ودمعي مطلق ومسلسل

وقد اعتنى جماعة من الافاضل بهذه القصيدة فشرحوها وللعلامة الصبان قصيدة على نهجها وفي موضوعها اولها:

صلوا صحيح غرام صبره ضعفا وبدلوا قطع من في حبكم شغفا

وهذا التأثر لخطاه والعمل على منحاه من العلامة الصبان هو وحده دليل على مكانة الرجل وقيمة قصيدته.

ومن هذا الباب ايضا قصيدة ابي الجيش محمد ضياء الدين الخزرجي الاندلسي المعروفة بالخزرجية في علمي العروض والقافية التي سارت بذكرها الركبان والتي جمعت مهمات العلمين في تسعين بيتا ونيف بفضل ذلك الاسلوب البديع الذي المعنا اليه وهو الرمز والاشارة. فبعد ان يقول في المطلع:

للشعر ميزان يسمى عروضه

بها النقص والرجحان يدريهما الفتى

فياتي به نظما واضحا لا غبار عليه، يقول رامزا لاجزاء التفعيل العشرة مشيرا اليها بحروف (أبجد):

اصابت بسهميها جوارحنا فدا
ركوني بهمة كوقعيهما سوى
فما زائراتي فيهما حجبتهما
ولا يد طولا هن يعتادها الوفا

الى غير ذلك. وقد بقيت ردحا من الزمن بكرا بخاتم ربها الى ان اقتضها الشريف ابو القاسم السبتي (لا الغرناطي) وكتب عليها شرحه (رياضة الابي) فعد ذلك من عبقرياته وتتابع الكتاب عليها بعد ذلك.

ويظهر ان علامتنا الصبان كان معجبا بهذه الآثار الاندلسية جدا فكما طبع على غرار قصيدة ابن فرح كذلك نسج على منوال قصيدة الخزرجي قصيدة لامية يقول فيها:

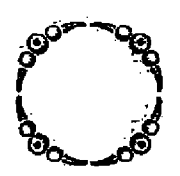
وبعد فعلم الشعر فن مؤكد
فبادر اليه واستمع فيه ما حلا

* * *

واما بعد، فقد قال ابن غالب في فرحة الانفس: « اهل الاندلس (عرب) في الانساب والعزة والانفة وعلو الهمة وفصاحة الالسن وطيب النفوس واباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة بما في ايديهم والنزاهة عن الخضوع واتيان الدنية (هنديون) في افراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم

(بغداديون) في نظافتهم وظرفهم ورقة اخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة اذهانهم وحده افكارهم ونفوذ خواطرهم» زاد ابن حزم: «(صينيون) في اتقان الصنائع العملية واحكام المهن الصورية» (تركيون) في معاناة الحروب ومعالجة الاتها والنظر في مهماتها». واني انشد هنا ما انشده ابو الفرج بن الجوزي في المدهش:

خطوا واقلامهم خطية سلب
فهم على الخيل اميون كتاب
ان احسنوا كلما واخلولقوا ذمما
واخشوشنوا هما فالقوم اعراب



جنـد ضهيـون

جاءني صديقي وهو ثـائر النفس مغتاظ يسب ويلعن هذا الزمن الذى ازرى بالكرام وادال منهم للئام وسخرهم للاراذل وجعلهم سخرية المحافل. فعجبت من حاله وكيف انقلب من هدوئه المحبوب وسكونه المرغوب الى هذه الثورة العنيفة التي قل ان شاهدته في مثلها طيلة ايام صداقتنا واسفت لضياع هذه الامسية التي كنت اقدر انها ستكون من خير اوقات العمر نشاطا وانساً بالفسحة مع الصديق والتحدث اليه في كل شأن من شؤون الكون والحياة وجعلت اكبح من جماح نفسه واسكن من ثورته واتلمس اسباب هذا الانقلاب الفجائي في سلوكه هذا الذي لو حدثني به محدث - ايا كان - ما صدقته ولا وثقت به لكني الان اراه عيانا واشهد دلائله في وجه الصديق وملامحه واشاراته وعباراته فلا شك انه قد استفز استفزازا لا يطاق واستثير بما لم يبق معه في قوس صبره منزع

وشعرت بالصديق كأنه يريد ان يخفي عني اسباب ثورته وبواعث غضبه فلم احرجه بالسؤال الصريح وان كان في نفسي حرص شديد على معرفة ذلك، فلما رأني اهون عليه الامر واحاول تسليته ما امكن قال لي انك لو تعلم السبب في تأثري هذا وسخطي على الزمن الخؤون لتقطعت

نفسك حسرات ولما وجدت صبرا على مضض الأيام ونكد الحوادث وعبر الدهر وانقلاباته. قلت ما اشوقني الى معرفة ذلك فاشاركك وجدك وحزنك واعزيك ان قدرت تعزية خاصة حارة بدلا من هذه التسليات العامة الباردة التي اكررها عليك منذ التقينا وما استطعت بها الى نفسك وصولا.

فقال كنت آتيا الى لقائك طيب النفس منشرح الخاطر مستبشرا بما سألقاه في محادثتك من غبطة وسرور وقد رتبت في نفسي برنامجا للفسحة لا شك انه كان سيروقك جدا وما عرفت كيف ملت عن الطريق المعتاد الى زقاق جانبي ظننت اني سأختصر به الطريق ولم يخطر ببالي اني ساضل به هذا الضلال البعيد وان ذلك شان البنيات ولازم الانحراف عن الجادة، فلما توسطت الزقاق وجدتني بالقرب من دار احد اليهود وعلى بابها يهودية تسكت ولدها وهو يبكي وقد سمعتها تقول له حين لمحتني وكان كلامها بالافرنسية كسائر اليهود المتمدنين الذين لم يبقوا يرضون التكلم بالعربية: «انظر هذا المسلم. انه سياخذك ان لم تسكت».

وسكت صاحبي ونظر الي وهو يلهث كانه كان حاملا لشيء ثقيل قد آده واتعبه. وكنت انا ابتسم لما سمعت من حكايته واعجب من شدة تأثره. فلما رآني كذلك ساء ظنه في وعجب من تبلد شعوري وكيف لم استحس ما في الواقعة من زراية وهوان، فقلت وهل اجبت صاحبتك بشيء او اشعرتها

على الاقل انك فهمت ما قالت فقال لا لم اقل لها شيئا ولقد هممت ان اصك وجهها ولكنني تذكرت أنها امرأة جاهلة على كل حال. فقلت لصاحبي جاهلة حيث انها جعلتك في اناقتك وجمال هندامك مثل الغول او البوبع الذي يخوف به الصبيان، قد والله جهلت جهلا مركبا. قال لا تسخر مني وكفى ما رايته من موت شعورك وكثافة حسك هذه العشية.

فربتت على كتف صاحبي وقلت له هون عليك يا عزيزي ولا تبتئس ولا تحزن بما يوجب السرور والفرح. انك قد حملت الي بشرى عظيمة في هذه العشية وقد كان الواجب ان تقص علي الخبر من اول وهلة لنبدأ سرورنا وابتهاجنا بهذه الفسحة في اول الطريق. اذا كان اليهود العصريون يخوفون اولادهم بنا كما كان يفعل اوائلهم فنحن لنا النصر والفلج بذلك اذ يكبر اولادهم على رهبتنا والتوجس منا فكيف يجرأون بعد على رفع راسهم امامنا او القيام بحركة عداء نحونا. اذا كان هؤلاء هم جنود صهيون الذين يعتمد عليهم في بناء ملكه وتمهيد عرشه فبشره من الآن بالخيبة والخسران! ولما قلت لك هل اجبت صاحبتك بشيء خشيت ان تكون نبهتها بعد الغفلة فلما قلت لي انك لم تجبها بشيء سررت سرورا عظيما بتركك لها في عمايتها ومن يدري انها كانت تحكي كلامك لزوجها فيجعلها تعدل عن خطتها في تربية الاولاد وما نشاء نحن ان يتنبه هذا العنصر الدخيل لمثل هذه الامور.

وقد سري عن صديقي بهذا الكلام وسر بقدر ما كان ساخطا اول الامر ومرت امسيتنا بعد ذلك على ما كنا نتمناه من الانشراح والمتعة.



درهم بدينارين

كانت بنت احدى الاسر الاصيلة ولكن الفقر غض من مكانها وحط من قدرها في هذا المجتمع الذي كل الاعتبار فيه مبني على الدرهم والدينار . وكانت على جانب من الجمال وصناع اليد ومن ملكات العفة المتوجة بتاجها الثمين .

تزوجها رجل من اولائك العامة الذين ملأت ادمغتهم الاساطير العنترية والاسماعلية وثقفوا مثلها وسخافاتها فخالوا انفسهم قد عرفوا كل شيء وصاروا بحيث لا يعجزهم شيء . وكان سمسارا لكنه لم يكن يسمسر عروض التجار بل كان ياتيها بالثوب فتخيطه فيسمسره ويبيع ليربح ربحا مضاعفا . وياتيها بقطعة الاثاث فيامرها بصقلها واصلاحها ثم يسمسرها لحسابه فيبيعها كذلك حتى صار من ذوي اليسار ان لم يكن في الناس مطلقا ففي السماسرة امثاله بغير شك .

وامتلك بعض العقار وما فتيء يجد ويجتهد وزوجه من ورائه تجري معه الى الغاية التي ينشدها . تشقى ليسعد وتتعب ليستريح ولاكنه لم يكن يرى لها شيئا من الفضل او يعطيها قليلا من الحق فيدلس عليها كما يدلس على زبائنه في السوق يزعم لها انها عاقر وهو العقيم ويتظاهر لها بالافلاس ليتمادى في استغلالها ويتفادى من اجابة مطالبها وهو الغني الذي جمع ثروته من شغلها وادأبها حتى اذا سول له الشيطان ان يضحي

بها في سبيل شهوته ويقدمها قربانا بين يدي أنانيته جاءها ذات يوم بسوداء قال انها ممن يتعامل معه من خارج المدينة وانها ستبيت ليلها عنده وتذهب في الغد.

فقامت الزوج المخدوعة بخدمة السوداء واحسنت ضيافتها ولما كان الغد لم تذهب ولم يقل لها الزوج شيئا، انما السوداء اخبرتها انه تزوجها وانها صارت ضرة لها وان البيت عاد لهما معا وانها اصبحت شريكتها في كل شيء فعرفت جلية الامر ورأت ان المقام بذلك البيت ضرب من الانتحار.

وفي غفلة من الرقباء تحولت الى منزل والدها وكان بيتا من الخشب في قطعة ارض محاطة بحظار من القصب والاعواد على مسافة قريبة من بيت ذلك الزوج الخؤون فلزمت المنزل رغم محاولته العديدة لارجاعها الى بيته ولكنها لم ترجع وضحت بجميع شوارها في سبيل حريتها وخالعته وانبت حبلها منه.

وقضت عدتها بين خدمة ابيها الذي كان فريداً في المنزل وغراسة بعض النباتات والرياحين في قطعة الارض التي كان ابوها يقوم بفلحها ويقتات مما تخرجه من بقول وخضراوات.

وكان الزوج المحروم الذي شعر في الحين بفراغ بيته وخراب عشه ياتي اثناء مدة العدة يطوف بالمنزل ويطل عليها من فرجات الحظار ويناديها فحينما تشعر به تختفي في البيت الخشبي ولا تعود الى الظهور حتى يمل ويذهب.

وهكذا الى ان انقضت عدتها وتقدم الى ابيها شاب من

حملة القرآن وضيء الوجه نقي الثياب من امثل الطلبة الذين يحترمهم كل من رآهم فخطبها وتزوج وخرج بها الى البادية حيث كان يشتغل بتعليم صبيان احدى القرى ويؤم الناس في مسجدها. وهناك حيث الهواء الطلق والعيشة الراضية تحررت من قيود العمل المضني التي كانت تغلها وتكبلها واستعادت صحتها وجمالها كاحسن ما كانت وأبهاه.

وبعد مدة رزقت من بعلها الجديد بابن افتر له ثغر سعادتها وانبعثت به حيوية امومتها التي كان قضى عليها كذب الزوج القديم.

حدثني بقصتها يوم وفاة هذا الزوج عن غير وارث صديقي الذي عرفني بالطالب الذي تزوجها فعرفته واخبرني انه رآه قبل ذلك بقليل ومعه ابنه منها وهو في سن السابعة تقريبا وبمنتهى الملاحة. فقلت سبحن الذي ابدل درهمها بدينارين!



السيد المختار

ليس السيد المختار من رجال السيف ولا من رجال القلم ولكنه من رجال الفكر الذين يقل لهم النظير، هكذا يعد نفسة ويعرف من لم يكن يعرف عنه ذلك ولكن بطرق واساليب لا تمتنع على حذقه ولا تعوز حسن تصرفه.

هو يحدثك اولا عن تأخر هذه الامة وانحرافها عن سبيل الرشد ويلفت نظرك الى ما بلغ اليه غيرها من الرقي في العلوم والمعارف والحضارة والفنون. ثم يشير الى اسباب كل من هذا التأخر الذي أصابنا والرقي الذي عليه غيرنا من الامم ويذكر من جملة ذلك كسلنا وجدهم وبخلنا وبذلهم وقناعتنا وطموحهم وخوفنا وشجاعتهم ثم يقول اننا يعوزنا رجال من ذوي الفكر الصائب والنظر الثاقب لينظروا في دائنا ودوائنا ويضعوا الخطط اللازمة لانتشالنا من هذه الهوة السحيقة التي وقعنا فيها ولكن مع ذلك يلزم ان يقوم الشعب بتنفيذ هذه الخطط والعمل بمقتضاها منصاعا لاوامر من وضعوها غير مبدل منها شيئا معترفا بما لهم من الفضل عليه وناظرا اليهم نظر اجلال وتقديس، لانهم الذين اعادوا اليه رمقه بعد ان كان في السياق ونفخوا فيه الحياة وقد اشرف على الموت.

غير انه - ويا للاسف - لا يرى في الشعب استعدادا لقبول افكار المصلحين وخطط المجددين لانه هو - وهذا شيء واقع -

كثيرا ما فكر وقدر ثم بحث ونظر وطلع على الناس بافكار جديدة وخطط مفيدة راميا الى تحسين مظهر هذه الامة طورا والى تنوير عقلها طورا آخر وعرض ذلك على كثير ممن يظن فيهم الغيرة والتحرق على مستقبل الوطن واهله، ولكنهم كانوا لا يرفعون بذلك راسا ولا يحيرون جوابا، فيمضي طاويا على حزن ويكاد ييأس من صلاح هذه الامة التي اعيى علاجها نطس الاطباء وحيل المفكرين.

وبمثل هذا الاسلوب يفرغ السيد المختار جعبته ويفضي اليك بذات نفسه فتعرف انه من اعظم المفكرين واكبر المصلحين الا انه كالنبي الذى ضيعه قومه تذهب دعوته ادراج الرياح ولا يستجيب له احد من الناس.

وتفكر انت في الرجل الذي له كل هذا الاهتمام بمصالح امته والحرص على مستقبلها فتقول في نفسك ماذا يصير لو كان السيد المختار مشرفا على مقدرات البلاد ومديرا لدفة سياستها ويحسن في نظرك ان تظهره على هذا الخاطر فيقبل منك بكل تلهف ويبدأ في عرض برنامجه الطويل الشامل لاصلاح حالة الامة مادة ومعنى دينا ودنيا فيبدأ بمسألة الكتاتيب والافران والحمامات وسقائي الماء وينتهي بتنظيم وزارات الجو والبحر والحربية وغيرها فلا يفرغ من حديثة حتى تشعر بان هذا المغرب البائس الحظ الآن قد صار اعظم شانا واكبر خطرا في النظام الداخلي والسياسة الخارجية من بريطانيا العظمى!

ولكنك ترى ان ذلك خيال بعيد التحقيق وامل لا طمع في الحصول عليه الآن على الاقل، ويشعر المفكر العظيم بما يجول في فكرك وما خامرك من الشك في امره فيسبقك الى التأسف على عدم امكان تطبيق هذا البرنامج ويقول (ان الله تعالى يعطي الفول لمن لا اسنان له) غير انه ما لا يمكن كله لا يترك كله، فعلينا ان ناخذ ببعض هذه التدبيرات ونبدأ منها بما هان ونترك ما صعب.

ففي باب التعليم وتنوير عقول الناشئة يجب ان نستحوذ على هذه الكتاتيب القرآنية وندخل عليها بعض اصلاحات تصير بها نافعة في الجملة مفيدة بعض الفائدة ونبدأ للتجربة باحدها ونطبق فيه الخطة المتوخاة فحين ما تمر عليه سنتان او ثلاث وتظهر النتيجة المحمودة للعيان يكون ذلك مشجعا على المضي في طريق الاصلاح وتطبيق الخطة على الجميع.

وياخذ بعض الناس بقول المفكر العظيم في هذه المرة لحسن الحظ ويعولون على العمل فيقيدهم بكتاب مخصوص يكون به الابتداء ويتكلف هو بامر حيازته لانه حبس احدى قريباته على التعليم، انما هو الآن في يد احد المكتبين الذين شاخوا وعجزوا عن العمل وقد اغلقه وذهب لحال سبيله، ويبقى مفكرنا يجول بنظره في طريقة العمل فيرى انه يجب قبل مخاطبة السيدة صاحبة الحبس ان ياخذ بخاطر المكتب نظرا لشيخوخته ولانه رجل متبرك بها ولكنه قبل انتهائه الى نتيجة عملية ياتي

احد الطلبة البدو فيلتقي بالشيخ المكتب ويطلب منه ان يعطيه مفتاح الكتاب «ليسترزق» الله فيه بتعليم الصبيان فيناوله الشيخ المفتاح بطيب خاطر ويحتل البدوي الكتاب ببضعة من الصبيان ويزاد في رقعة الشطرنج بغل!

وبضياع الكتاب قضى على الفكرة من اساسها ولم يعد يفكر فيها احد، وحملت المسؤولية على الظروف التي صار من طبيعتها ان لا تساعد على عمل خير كما قال المفكر العظيم، ولكن الامل لم ينقطع في الخطط الاصلاحية الاخرى التي يهتم بها حضرته، فقد عرض على الناس هذه المرة مشروعا يتعلق بتحسين مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية يرى انه لا اعتبار لنا عند احد ما دمنا لم نقم به.

وقد انصاع له ثلة من الناس ايضا ولكنهم عولوا على السعي بانفسهم في تنفيذ هذا المشروع. وكان قدر له نحو الخمسين ريالا فجمعوها من تبرعات بعض المحسنين بطريقة سرية - كما كان يقترح المفكر العظيم دائما - وبعد مداولة واخذ ورد وفي ظرف عدة اسابيع فقط اتفقت كلمة المفكر مع كلمة العاملين على نوع ولون وعدد اذرع الثوب الذي فصل منه غطاء يوضع على النعش حين حمل الجنازة الى المقبرة! - وكان هذا هو المشروع التحسيني الذي يهتم به المفكر العظيم ردحا مر الزمن.

فلتحيى الامة! فلتحيى الامة!

ذكرى الهجرة

كتبت هذه الكلمة للجنة الاحتفال بذكرى الهجرة في الدار البيضاء عام 1360

ان ذكرى الهجرة يجب ان تكون بالنظر الى الهجرة من وجه عملي يحفز الامة الى العمل والنسج على منوال اولئك الاسلاف الاطهار الذين باعوا انفسهم لله بيع السماح وزهدوا في متاع الحياة من مال وبنين ومساكن واوطان بغية الوصول الى مثل اعلى من سمو الروح وقدسية النفس في ظلال الوحي الوريفة وكنف الاسلام الرحيب.

وان من محاسن الاسلام التي لم ار من نبه عليها ان كل ما اتى به من الشعائر وفرضه من الواجبات، سواء الموقت منها والممتد، هو حظ مشاع بين اتباعه ودعوة عامة لمعتنقيه اينما كانوا وفي اي وقت وجدوا. فلا يحرم من ذلك الفضل احد ولا يختص بهذا الخير متقدم دون متأخر:

فاما فيما امتد حكمه من الشعائر والواجبات فالامر واضح واما في الوقتي منها المنقطع بانقطاع سببه فانه ان لم تبق صورته مع بذل الثواب العظيم عليه كما في بعض اعمال الحج، فلابد ان يعوض منه عمل آخر يكون دائميا ويكون له قيمة المعوض سواء بسواء.

فهذه الهجرة التي اعز الله بها الدين ورفع مكانه عاليا بين الناس والتي تعتبر حادثا فاصلا في حياة الاسلام والنبي عليه السلام اذ بها امن هو واصحابه رضوان الله عليهم على انفسهم وامكنهم التظاهر بعبادة ربهم والدعوة الى الله كما امر ودفاع من طغا عليهم وتجبر حتى قال الله عز وجل فيهم «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله، واولئك هم الفائزون، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها ابدا، ان الله عنده اجر عظيم» وقال تعالى «للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون» وقال النبي صلى الله عليه وسلم «لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار» وقال لمن سأله من اصحابه ان يدله على عمل يستقيم عليه «عليك بالهجرة فانه لا مثل لها».

هذه الهجرة قد انقطع سببها وانقضى موجبها ولكن الشارع الحكيم لم يشأ ان يحرم الامة من مثل هذا العمل في ثوابه العظيم واجره الجسيم فعوضها منه امرا باقيا لا ينتهي وجعل له مثل فضله ورغب فيه وحث عليه فقال مخبرا ومنشئا «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»!

مرحى! مرحى! ايها الدين الكريم، ايتها الرحمة المهداة، انما انت نفحة قدسية وعطفة علوية، ترفرف على هذا الانسان الضعيف وتجذبه نحو سماوات الكمال ليتطهر ويتقدس، فلا

يبتئس احد ولا ييأس ، فبالجهاد ، اعني بذل الجهد في اعلاء كلمة الله ، وبالنية اعني الاخلاص في العمل يدرك مقام من مدحهم الله عز وجل بقوله « اولئك هم الصادقون ، اولئك هم الفائزون »

وفي الحديث : ان اعربيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الهجرة «فقال ويحك ! إن شأن الهجرة شديد فهل لك من ابل ؟ قال نعم ! قال فهل تؤدي صدقتها ؟ قال نعم ! قال فاعمل من وراء البحار فإن الله عز وجل لن يترك من عملك شيئا » فبشرى معشر العاملين بشرى ! فإن الله لن يضيع عملكم من وراء البحار وان القدوة الاعظم صلى الله عليه وسلم لينظر اليكم – وأنتم في بلادكم – نظره لمن هاجر الى الله ورسوله لان معنى الهجرة قد تحقق معكم . وما معنى الهجرة الا العمل لاعزاز دين الله فإن كان في عدم الهجرة اعزاز لدين الله فان ترك الهجرة هو الهجرة !

وفي هذا المعنى كما لا يخفى رد على كثير من المتشائمين العجزة الذين يستعظمون هذه الاخطار ويجزعون مما يرون من الخطوب فيستخذون ويستسلمون ولا يرون وسيلة للنجاة الا الهجرة ومفارقة الاوطان جاهلين او متجاهلين انه لو اخذ الناس جميعا برأيهم لكان معنى ذلك تسليم بلاد الاسلام الى العدو وتحقيق رغبة لم يستطيع ان يحققها بالسيف والنار . وأي فرق بين ذلك وبين الفرار يوم الزحف وتولية العدو الادبار ؟

حقا إنها دسيسة استعمارية خبيثة ولاكن الحمد لله على ان العوامل الطبيعية التي تقاومها اقوى من العوامل السياسية التي تشجعها . وأذكر اني كنت اتحدث منذ بضعة اشهر مع بعض الفرنسيين في الاحوال الحاضرة فقال لي ان مصيبتنا هي المصيبة واما انتم فأمامكم الشرق والبلاد المقدسة يمكنكم ان تهاجروا اليها . واجبته كلا ! فإننا لن نهاجر ولن نترك هذه البلاد فانها وديعة الاسلاف عندنا واذا ضيعناها نكون خونة مثل رئيسكم التي تحدثت لي عنه (بيتان) فابتسم وقال انت وحدك تقول هذا !

وبعد فلما استقر الاسلام واخذ اتجاهه الاخير في تتميم مكارم الاخلاق قال النبي صلى الله عليه وسلم «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه » فعم لفظ الهجرة بعد ما خص وراجع شموله ليدخل كل من تعلق قلبه بهذه الفضيلة ويحقق ان الاسلام دائما هو ذلك الدين العملي المساير بالمصلحة العامة جنبا لجنب وان جميع فروضه هي مطالب منطبقة على العقل والمنفعة الحقيقية للانسان فاذا قام بها المكلفون سعدوا سعادة دائمة ورقي المجتمع رقيا عظيما واي فوز وفلاح للبشر اكثر من ان يهجروا مانهى الله عنه!؟

في عيد الكتاب

«القى هذا الخطاب بمناسبة افتتاح المكتبة البلدية في يوم عيد الكتاب الواقع في 23 ابريل 1941 بمسرح سربانطيس بطنجة»

ايها السادة

طلب الي ان اتكلم في هذا الحفل المشهود على انه موسم ادبي رفيع لا ينبغي ان يتكلم فيه الا باحاديث العلوم والآداب واسمار المعارف والفنون. فانا فضلا عن الاعتبار الخاص الذي افردت به منّ بين سائر من لهم استعداد لذلك، احببت ان يكون اليوم حقا يوما ادبيا زاهرا وان لا يسمع فيه الا صوت العلم عاليا رفيعا. فقطعا للطريق على اولئك الترثارين المهذارين وسدا للمجال في وجه كل مداح افاك قد مل الناس حكومة وشعبا سماع اباطيله وترهاته، اجبت الطلب بكل سرور.

وما ذا عساني اقول في يوم المكتبة والكتب ؟ وما ذا اتحدث به عن الكتاب والمكتبة ؟ وهما دعامة الحياة الفكرية في كل الامم ومظهر النشاط الادبي ونتيجة خصب العقول وتفتح القرائح. فالشعب الذي لا يقرأ، لا يسبر غور الحياة ولا يقوم بالتغذية اللازمة للفكر المنهوم. والشعب الذي لا يكتب انما يبرهن على جموده وتبلد احساسه وانه شعب عقيم ليس فيه استعداد للانتاج.

واول مقياس لتطور فكر الشعب وتثقفه هو هضمه لما يقرأ وتمثله له في اساليب تعليمه وتربيته. واعظم مظاهر عبقرية الشعب ونبوغه هي كتبه ومنتجات عقول ابنائه. فالكتاب اذن هو باعث الحركة الادبية ودليل الحيوية الفكرية في كل عصر وفي كل جيل. والمكتبة هي معبد الفكر ومعتكف المفكرين وهي المعمل الذي تصنع فيه العقول وتصاغ الاذواق.

وها نحن نرى الامم الحية اول ما تجتهد فيه ان تمحو اثر الامية من بين افرادها حتى تهيئهم بذلك للقراءة ثم تسهل لهم سبل هذه القراءة حتى تجعلها منهم على طرف الثمام. فتضع بين ايديهم من الجرائد والمجلات والكتب الخفيفة من كل نوع، وفي كل فن، ما يستطيعون به ان يتتبعوا تطورات العالم في السياسة والاقتصاد والعلم والادب. تؤسس لذلك المكاتب القارة في المدن والاحياء والمتنقلة في الشوارع والقرى تسهيلا على من يريد المطالعة بل ترغيبا له فيها. وتقيم معارض دورية للكتب بمناسبات مختلفة تقديرا لها واعلانا عنها. وتمنح للكتب الناجحة جوائز قيمة مكافأة لاصحابها وتشجيعا لهم في الوقت نفسه على مواصلة الانتاج.

وهكذا تخلق من طبقات الشعب الفقيرة والجاهلة مجموعات من المثقفين والمتعلمين يعرفون واجباتهم الوطنية ويحترمون انفسهم ويؤدون ما عليهم من الحقوق بدافع من

انفسهم ولا يألون جهدا في تحقيق المثل الأعلى لامهم التي تريد ان تحيى دائما حياة العز والشرف.

وبذلك كثرت الكتب كثرة لا مزيد عليها وكثر الاقبال على القراءة بحيث يستنفد كل الكتب، فالكتاب تطبع منه ملايين النسخ، والكتاب تطبع منه مآت ألوف النسخ، والكتاب تطبع منه عشرات ألوف النسخ، وكلها تقرأ وتنفد، ويصبح بعد قليل من اندر النوادر.

هذا عند الامم الحية في العصر الحاضر وبعد اختراع المطبعة التي هي من اعظم المنن على الانسانية.

وفي العصور الغابرة عرف القدماء قيمة الكتاب واجلوه وبذلوا في تحصيله كل نفيس وغال. فالكلدانيون والعبرانيون كانوا من اول الامم اشتغالا بالعلوم والمعارف وتقديرا للكتب والمكاتب. واهل فارس والهند والصين هم ايضا من سباق هذه الحلبة، وقد اعتنوا بطلب الحكمة وتحصيل الاداب فبرعوا في هذا الصدد براعة تامة واودعوا خلاصة معارفهم في كتب نفيسة تناقلتها الامم بعدهم ومنها كانت تتكون مكاتب العهد القديم. والجميع يعرف قصة كتاب كليلة ودمنة الهندي وما بذله الملك الفارسي في سبيل الحصول عليه من الجهود الكبيرة مما يدل على اهتمام القوم بالكتاب وتقديرهم له التقدير العظيم.

واليونان هم معلموا القرون ومهذبوا الاجيال بفلسفتهم وطبهم وهندستهم وادبهم وهم الذين تركوا الذخائر الغالية من

الكتب العلمية والفنية التي لا كفاء لها ولا نظير.

والمصريون هم اول من استعمل ورق البردي للكتابة وتخليد الآثار الفكرية القيمة وناهيكم بما جمعوه من كتب العلم والمعرفة وما كانت تحويه مكتبة الاسكندرية المعروفة في عهد البطالسة من التآليف والمجلدات التي بلغت في بعض التقديرات الى 700000 كتاب. وكان بهذه المكتبة المدرسة العظيمة المشهورة التي تعرف عند العرب برواق الحكمة وفيها ولدت الفلسفة الافلاطونية الحديثة.

اما العرب فانهم بعد ان وجد لهم كيان سياسي ودولة مدنية بسبب ما هداهم الله اليه من الاسلام قاموا يجدون في طلب العلم والمعرفة ويجتهدون في البحث عن كتب الحكمة والادب. وما مضى جيل على تاسيس الخلافة الاسلامية حتى كان الخلفاء انفسهم يامرون بترجمة الفلسفة اليونانية ونقل كتب الاقدمين من الممالك التي فتحوها سواء في الالاهيات والطبيعيات والرياضيات والادبيات الى اللغة العربية وتاسيس المكاتب العمومية واغداق الصلات والجوائز العظيمة على العلماء والمؤلفين وبناء المدارس لطلبة العلم في سائر انحاء المملكة الاسلامية المترامية الاطراف.

وقد كثرت الكتب عند العرب كثرة مطلقة لا يمكن معها لامة ان تقابلهم بمثلها، اذ كان فيهم مؤلفون من كل الاجناس والملل كالفرس والروم والقبط والسريان والهنود

واليهود والترك والديلم والقبط والفرنج والبربر فضلا عن العرب انفسهم. وكان ما يكتبه بعض الافراد في النقليات والعقليات يزيد بكثير على ما تكتبه امة باجمعها في جيل كامل من تاريخها فمنهم من كتب الف كتاب ومنهم من كتب خمسمائة وكثيرون جدا كتبوا ثلاثمائة ومائتين وفي هذه الكتب ما يكون مؤلفا من مائة جزء وخمسين جزءاً وعشرين وعشرة، وبعضها بيدنا لا يزال الآن يحتوي على هذا العدد مما لا مجال للشك فيه.

وقد اصابت المكتبة العربية نكبات وخطوب تاريخية مشهورة من احراق واغراق ونهب وسلب بيد الصليبيين في حروبهم المشهورة وبيد التتار في هجماتهم المخربة على ديار الاسلام حتى قيل انهم كانوا يردمون الانهار بالكتب ويجتازون عليها كالجسور.. ومع ذلك فان البقية الباقية منها فيها بلاغ ومقنع. وحسبكم ان ما عده حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون من اسماء الكتب المعروفة في عصره اعني في القرن الحادي عشر للهجرة يقرب من 15 الف كتاب من الامهات والاصول عدا الحواشي والشروح التي لا تعد ولا تحصى.

وكان اول من انشأ مكتبة عامة في الاسلام هو الخليفة هارون الرشيد او ابنه المامون وكانت هذه المكتبة في بغداد وتسمى بيت الحكمة ولا تسل عما كان بها من الكتب والمجلدات في كل المعارف البشرية. ثم اسست بعد ذلك

مكاتب عديدة في بغداد نفسها والبصرة ودمشق والقاهرة وفي بخارى وسمرقند وخراسان والري وفي قرطبة واشبيلية وغرناطة وفي مراكش والقيروان وفاس وغيرها.

وكان بخزانة العزيز بالله من خلفاء الفاطميين بمصر مليون وستمائة الف كتاب منها نحو 30 نسخة من كتاب العين للخليل ومنها 20 نسخة من تاريخ الطبرى ومنها 100 نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد مما يدل على انهم كانوا يلاحظون فائدة الجمهور في تكرير النسخ.

ولما دخل الصليبيون مدينة طرابلس الشام كان فيها خزانة كتب تحتوي على ثلاثة ملايين مجلد.

واما في الاندلس فقد اشتهر انه كان بمكتبة الحكم بن الناصر بقرطبة 400000 كتاب وان فهارس الدواوين الشعرية وحدها بهذه المكتبة كانت 44 فهرسا في كل فهرس عشرون ورقة، وكان يرسل في طلب الكتب وشرائها الى كل الانحاء ويكافيء العلماء والمؤلفين مكافآت جزيلة فبعث الى ابي الفرج الاصبهاني الف دينار ذهب ليرسل اليه كتاب الاغاني قبل اخراجه لبني العباس. وكان ابو الفرج امويا مثله. وكذلك بعث الى ابي بركر الابهري الف دينار على شرحه لمختصر ابن عبد الحكيم.

واقتدى بالحكم الرؤساء والاعيان واهل الوجاهة في قرطبة فتنافسوا في انشاء المكاتب واقتناء الكتب حتى كانت

المكاتب العمومية فيها تعد بالعشرات واما المكاتب الخاصة فحدث عنها ولا حرج وربما كان الرجل من العامة وله مكتبة حافلة في بيته كما يستفاد من حكاية الحضرمي هذه، قال:

«اقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة اترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع لي وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به اشد الفرح فجعلت ازيد في ثمنه فيرجع الي المنادي بالزيادة علي الى ان بلغ فوق حده فقلت له يا هذا ارني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوي قال فاراني شخصا عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له اعز الله سيدنا الفقيه ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده فقال لي لست بفقيه ولا ادري ما فيه ولكني اقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمل بها بين اعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رايته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال بما ازيد فيه والحمد لله على ما انعم به من الرزق فهو كثير».

قال الحضرمي «فاحرجني وحملني على ان قلت له نعم لا يكون الرزق كثيرا الا عند مثلك، يعطي الجوز من لا له اسنان. وانا الذي اعلم ما في هذا الكتاب واطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلا وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه» الخ.

ونشير الى بعض المكاتب المغربية تتميما للفائدة ففي مراكش اسس يوسف بن عبد المومن مامون الموحدين مكتبة

ضاهى بها مكتبة الحكم المشار اليها وجمع لها من الكتب ما كان متفرقا في الخزائن الخاصة والعامة ببلاد المغرب والاندلس حتى اصبحت من اعظم مكاتب الاسلام ــ وقد اورد في المعجب هذه الحكاية التي تدل على ما كان يبذله في هذا السبيل من الترضيات الكبيرة قال:

«اخبرني ابو محمد عبد الملك الشذوني احد المتحققين بعلمي الطب واحكام النجوم قال كنت في شبيبتي استعير كتب هذه الصناعة يعني صناعة هذه الاحكام من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى ابا الحجاج يعرف بالمزاني بتخفيف الراء كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت الى ابيه في ايام الفتنة بالاندلس فكان يعيرني اياها في غرائر احمل غرارة واجيء بغرارة من كثرتها عنده فاخبرني في بعض الايام انه عدم تلك الكتب بجملتها فسألته عن السبب الموجب لذلك فاسر الي ان خبرها انهى الى امير المؤمنين فارسل الى داري وانا في الديوان لا علم عندي بذلك وكان الذي ارسل كافور الخصي مع جماعة من العبيد الخاصة وامره ان لا يروع احدا من اهل الدار وان لا يأخذ سوى الكتب، وتوعده والذين معه اشد الوعيد ان نقص اهل البيت ابرة فما فوقها فاخبرت بذلك وانا في الديوان فظننته يريد استصفاء اموالي فركبت وما معي عقلي حتى إتيت منزلي فاذا الخصي كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج اليه فلما رآني وتبين ذعري

قال لا بأس عليك واخبرني ان امير المومنين يسلم علي وانـه ذكرني بخير ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ثم قال لي اهل بيتك هل راعهم احد او نقصهم شيء من متاعهم فسألتهم فقالوا لم يرعنا احد ولم ينقصنا شيء. جاء ابو المسك حتى استأذن علينا ثلاث مرات فاخلينا لـه الطريق ودخل هـو بنفسه الى خزانة الكتب فامر باخراجها فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الروع. وولوه بعد اخذهم هذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه»

وهذا نفسه هو ما تفعله الحكومات الراقية اليوم في نزع مثل هذه الذخائر من ايدي العامة محافظة على تراث الامة وصونا له من الضياع.

وكان لخزانة الكتب عند الموحدين ولاية خاصة لا يولاها الا خاصة اهل العلم لان امرها لديهم عظيم. وممن ولي النظر فيها ايام يوسف بن عبد المومن القاضي ابو محمد بن الصقر وكان من احسن العلماء نظرا في كثير من الفنون فقام عليها اتم مقام واستنسخ لها كثيرا من المجلدات وكان كلما بالغ في النصيحة والخدمة كلما بالغوا له في العطايا والصلات.

ولما كان الناس على دين ملوكهم فان رجال الدولـة والكبار وذوي الحيثيات كانوا يتنافسون في هذا السبيل وقل ان تجد منهم من ليس له في بيته مكتبة عامرة تحتوي على عدد كبير من المجلدات. وقد ذكر عن القاضي عيسى بن

ابي حجاج بن الملجوم - وبنو الملجوم من بيوتات فاس القديمة - انه ابتاع اصل ابن عبد البر من سنن ابـي داود بخمسة الاف دينار فهل سمع بمثل هذا الثمن لكتاب متداول يقع في مجلد؟ الحقيقة ان هذا الفعل اربى على فعل الحكم في شراء الاغاني من مؤلفها ابي الفرج. وكان للامام عبد الرحمن بن الملجـوم خزانة كتب بيعت خرمها اي اوراقـها المتخرقة بعد وفاته بستة الاف دينار فاذا كان هذا ثمن الخرم فما ثمن الكتب من اصلها؟

وحكى الانصاري في تاريـخ سبتة ان عدد الخزائن بهـا كان اثنين وستين. كان منها في القديم بدور الاكابر وذوي الاقدار خمس واربعون خزانة. وفي زمانه كان منها سبع عشرة خزانة تسع بدار الفقهاء والصدور وثمان موقفة على طلاب العلم. اقدمها الخزانة الشهيرة ذات الاصول العتيقـة والمؤلفـات الغريبة خزانة ابي الحسن الشاري التي بالمدرسة المنسوبة اليه التي ابتناها من ماله وهـي اول خزانة وقفت بالمغرب على اهل العلم. واعظمها احدى خزانتي الجامـع العتيـق الكائنة بشرقي صحنه وبازاء باب الشواشين احد ابوابه وهي في الكثرة بحيث لم يشذ منها فن من الفنـون ولا نوع من المعـارف اصلا مع تعدد مصنفات ذلك الفن وكثرة دواوينه. الخ

ولما جاء بنو مرين اسسوا خزانـة القرويين العامرة وشحنوها بنفائس الكتب والذخائر وما زال الملوك والمحسنون من الشعب يقفون عليها المؤلفات والتصانيف البديعة الـى ان

صارت من اعظم المكاتب شهرة في العالم الاسلامي كله. وبها كثير من الكتب الموقوفة بخطوط مؤلفيها انفسهم كتاريخ ابن خلدون وغيره ولولا ان الايدي تلاعبت بكثير من ذخائرها لكانت اليوم في طليعة مكاتب العالم غنى بالنفائس والنوادر.

وهناك مكاتب اخري لا تخلو من نفائس وذخائر كخزانة جامع ابن يوسف بمراكش وهي جامعة وخزانة الجامع الاعظم بمكناس ويغلب عليها كتب الفقه كالمدونة وشراحها وخزانة الجامع الاعظم بتازة وبها نحو 400 مجلد في التفسير والحديث وما الى ذلك ومن مكاتب الافراد خزانة القاضي مولاي عبد الهادي بفاس تحتوي على ذخائر منها تاريخ للمغرب قبل الاسلام في مجلد على ما قيل والخزانة الفاسية بها نحو 4000 مجلد وخاصة كتب السادة الفاسيين. والخزانة السودية بها نحو 3000 مجلد والخزانة الكتانية بها على قول صاحبها نحو 14 الف مجلد وهي اكثر نفائس وهذه كلها بفاس.

والخزانة الزيدانية بمكناس بها نحو 5 آلاف مجلد ومجموعة كبيرة من الظهائر والوثائق المخزنية وخزانة وزان التى انتفع بها الفقيه الرهوني في تأليف حاشيته المشهورة ويغلب عليها كتب الفقه. وخزانة الصويرة من تحبيس السلطان سيدي محمد ابن عبد الله العلوي بها نسخة من المدارك يقرب تاريخها من عهد المؤلف. وخزانة ابزو بها نحو الف مجلد مخطوط وخزانة ايت أعياش وبها كثير من النفائس كتاريخ المقري لعلماء

مراكش وفاس وغيرها وخزانة ابهت يوسي وهي مثل سابقتها والخزانة الناصرية بتمجروت من اغنى الخزائن المغربية قيل ان بها من شروح البردة والهمزية فقط اكثر من 300 شرح الى غير ذلك مما لو تتبعناه لطال بنا الحديث.

وهذا مما يدل على نضج الفكر المغربي في الماضي وانتشار القراءة وبالتالي العلم والمعرفة في البوادي كما في الحواضر وشدة الاقبال على الطلب والتحصيل من سائر طبقات الشعب. فاذا رأينا ما كان لاسلافنا من العناية بتثقيف عقولهم وتوسيع دائرة معلوماتهم بالمطالعة وانواع الدراسة، على قلة الكتب وصعوبة اقتنائها في عصرهم وكثرتها وسهولة ذلك في عصرنا مع ما نحن عليه من الزهد فيها والانصراف عنها علمنا سر تقدمهم وتأخرنا وارتقائهم وانحطاطنا فالى الكتاب والى المكتبة وليحي الكتاب ولتحي المكتبة !..



المتنبي في رأي طه حسين

لم اقرأ - فيما قرأت عن المتنبي - لكاتب قديم او حديث من رأي كان اشد زراية وابلغ تنقيصا لشخصية الشاعر ونفسيته الحساسة من هذا الرأي الذي يجمله الدكتور طه حسين في بضعة سطور بعد ان يمهد له السبيل بالكلام على مصر وكافور وقضية المتنبي معهما. ودونك ما يقوله الدكتور في الفصل الثالث من الكتاب الرابع من مؤلفه (مع المتنبي) ص 539 :

«والذي اريد ان اصل اليه من هذا الحديث الطويل هو ان المتنبي قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه، وما اكثر ما يخدع الناس عن انفسهم. ولكن الغريب ان المتنبي لم يخدع نفسه وحدها وانما خدع معها كثيرا جدا من الناس فظنوا به الفلسفة وليس هو من الفلسفة في شيء. وظنوا به الحرية والكرامة واباء الضيم وليس هو من هذا كله في شيء. وانما هو رجل من اهل زمانه لم يمتز منهم باخلاقه وانما امتاز منهم بلسانه كما كان يمتاز غيره من الكتاب والشعراء»

فهل صحيح ان المتنبي لم يمتز بشيء عن غيره من الكتاب والشعراء وانما مزيته الكلام كغيره من الكتاب والشعراء؟ او ان لسان الوطنية المصرية والعصبية الاقليمية هو

المتكلم حينئذ والدكتور طه حسين قد تقمص جلباب الباحث العابث لئلا يشهد الناس على جده في القول ولا سيما مع اصطناع الغرض ونبذ النزاهة جانبا؟...

وأول ما في هذا الكلام من الخطل انه يغمز سائر الكتاب والشعراء بالتجرد من الفضائل النفسية والمحاسن الخلقية ويقصرهم على صناعة الكلام وشقشقة اللسان فيجعل المتنبي وسائر الادباء - والدكتور منهم بلا شك - انما يمتازون عن اهل زمانهم بالسنتهم ولا حظ لهم في الخلق او الفضيلة ولا نصيب لهم من الفلسفة او التفكير. وهل يوافق على هذا احد اوتي شيئا من التمييز او كان على جانب من الاطلاع؟

فمن هم وضعة القوانين الخلقية والدساتير التربوية في كل عصر واقليم وفي كل امة وجيل غير من يحمل عليهم الدكتور هذه الحملة الشعواء من الكتاب والشعراء؟

بلى! ومن هم المفكرون الذين يسبقون عصورهم ويرتجلون النظريات الفلسفية قبل ابانها ويحللون المشاعر الانسانية ويشرحون دخائل النفوس غير هذا الصنف الملهم من الناس اعني الكتاب والشعراء؟

ولله در شوقي اذ يقول: انتم الناس ايها الشعراء!

اما انا لا نعلم الدكتور الفاضل هذا وانه ليعلمه ويعلمه احسن من غيره، ولكنا نلقن من لم ينضج من القراة وننبه من يخدع من الشبان. واما بخصوص الدفاع عن المتنبي فسوف

فدع الكلمة للدكتور نفسه فنراه وهو ينقض رايه في الشاعر ويثبت له كل ما نفاه عنه من الفضائل ويراجع الانصاف ويسمو به الى اعلى المراتب، وهكذا يرد طه حسين على طه حسين ابلغ رد ويكفينا عن غير قصد مؤونة ابطال كلامه والاحتجاج عليه بالحجج التي مهما تكن قوية فلن تبلغ قوة اعترافه هو واقراره على نفسه.

واذا تأملنا كلام الدكتور في تلك الفقرة وما قبلها وما بعدها، رأيناه يتلخص في ثلاث نقاط: انكار ان يكون للمتنبي فلسفة بل شيء من الفلسفة. انكار اخص ما امتاز به المتنبي من الاخلاق كالحرية والاباء الكرامة. ومساواة المتنبي للشعراء عموما في مزية القول المجردة بحيث لم يفضلهم بشيء

وللرد على الدكتور في النقطة الاولى نأتي بقوله ص 386 وقد انشد للمتنبي

يدفن بعضنا بعضا ويمشي	اواخرنا على هام الاوالي
وكم عين مقبلة النواحي	كحيل بالجنادل والرمال

ونصه «وما اراني في حاجة الى ان انبهك الى ان هذين البيتين قد اثرا في التشاؤم العلائي وما نشأ عنه من فلسفة تأثيرا بعيدا»

وقوله ص 388 «واما البيتان الاخران فقد وثب فيهما الى معنى فلسفي رائع فتح به لابي العلاء بابا من الشعر اتى فيه

بالاعاجيب واكبر الظن ان المتنبي قد ظفر بهذا المعنى في بعض قراءته الفلسفية وذلك حيث يقول:

اذا ما تاملت الزمان وصرفه — تيقنت ان الموت ضرب من القتل
وما الدهر اهل ان تؤمل عنده — حياة وان يشتاق فيه الى النسل»

وقوله ص 389 «ومع ذلك فما اريد ان ادع هذه القصيدة دون ان اثبت هذين البيتين اللذين فتح بهما المتنبي ايضا بابا من ابواب الفلسفة المحزونة المتشائمة لشعر ابي العلاء:

سبقنا الى الدنيا فلو عاش اهلها — منعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتي تملك سالب — وفارقها الماضي فراق سليب»

وقوله ص 391 «ولكن لا ندع هذه القصيدة... دون ان نرى هذه الابيات التي تصور احسن تصوير علم المتنبي بطبائع الناس وحرصهم على الحياة وتفتح لابي العلاء بابا من ابواب الفلسفة والتفكير. وذلك قوله:

ولذيذ الحياة انفس في النفس — واشهى من ان يمل واحلى
واذا الشيخ قال اه فما مل — حياة وانما الضعف ملا»

وقوله ص 397 «ثم ينتهي المتنبي بهذه القصيدة الى فلسفة مظلمة حزينة اقل ما يقال فيها انها تصور شكه في خلود النفس وانحرافه بهذا الشك عن طريق المسلمين واحساسه التعب من هذا الشك والارتياب وتفتح بابا فلسفيا آخر لابي العلاء. واحب ان تلاحظ ان المتنبي يصطنع في هذه الابيات لغة النظار واصحاب الكلام اكثر مما يصطنع لغة الشعراء وسيقلده

ابو العلاء في هذا النحو من التعبير كما يذهب مذهبه في هذا النحو من التفكير، واحسب ان الاحظ آخر الامر ان البيت الذي يختم المتنبي به قصيدته صورة رائعة مظلمة لليأس الفلسفي المهلك الذي يؤذن بالشيخوخة وما يتبعها من العجز والاعياء، وهذا كله حيث يقول:

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم   الا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة   وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ومن تفكر في الدنيا ومهجته   اقامه الفكر بين العجز والتعب»

وقوله ص 604 «ثم انظر آخر الامر الى هذه الابيات التي تصور اذعانه للقضاء وصبره على المحن، ولكنها تنتهي به الى أنه هي اليأس القاتم الذي ليس وراءه امل ولا رجاء:

فان امرض فما مرض اصطباري   وان احمم فما حم اعتزامي

وان اسلم فما ابقى ولكن   سلمت من الحمام الى الحمام

تمتع من سهاد او رقاد   ولا تامل كرى تحت الرجام

فان لثالث الحالين معنى   سوى معنى انتباهك والمنام

والمتنبي في هذه الابيات الاخيرة يبلغ الفلسفة العليا ويرتفع عن نفسه وسجنه ومرضه وما يحيط به من الاحداث الى التفكير في طبيعة الموت وما يكون وراء القبر... الخ».

ونكتفي بهذا القدر من كلام الدكتور الذي اثبت فيه للمتنبي فلسفة وفلسفة عليا وعلما بطبائع الناس وتاثيرا قويا في فيلسوف المعرة. فيا ليت شعري انسي الدكتور كل هذا

لما قال مـا قال في ص 539 أم كان هو أيضا ممن خدعه المتنبي ولم يفطن لخداعه الا بعد ان سجل هذه الاعترافات؟!..

اما النقطة الثانية فهذا كلامه الصريح في ابطالها، قال ص 597 : «ولكن المتنبي قد تغنى خزنه والمه وما احاط بنفسه من الكوارث والخطوب في شعر لم يقصد به الى مدح ولا هجاء وانما قصد به الى الغناء وحده. كان طائرا تعود الهواء الطلق والفضاء العريض، يرتفع في السماء ما اتاحت له قوته العنيفة ان يرتفع، فاذا اراد الراحة لم يقع الا على الشواهق من قمم الجبال، فاذا هـو الآن سجين في قفص ضيق لعله من الذهب المرصع بالوان الجوهر، ولكنه قفص على كل حال، وكان جوادا مرحا فرحا حياته كلها في العدو والغزو، ولذته كلها في المـرح والنشاط، لا يطمئن ولا يرضى الا اذا مضى امامه في البيد والمهـامه، مستمتعا بحر النهار وبرد الليـل او اقتحم الصعاب والعقاب الى العدو ثملا بنشوة الظفر او ألم الهزيمة، فاذا هـو الآن مرتبط في الفسطـاط عند قصر كافور، قد مضغ الشكيم حتى مل مضغ الشكيم وقد افنى مرحه ونشاطه في هذه الحركات العنيفة المرحة التي ياتيها الجواد الاصيل في الرباط لا تقدمه ولا تؤخره فاذا طالت عليه اضنته وعنته وردته الى الخمود والفتور».

فهـل بعد هذا الكلام الجميـل في تصوير حريـة المتنبي

وشغفه بها وحنينه اليها دليـل على اثبات ما نفاه الدكتور من ذلك وتجاهله وانكره انكارا كليا؟

ودونك عبارات اخرى له في هذا الصدد؛ قال بعد هـذه الابيات ص 569:

ومن هوى كل من ليست مموهة
تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته
رغبت عن شعر في الرأس مكذوب
ليت الحوادث باعتني الذي اخذت
مني بحلمـي الذي اعطت وتجريبي
فما الحـداثـة مـن حلم بمانعـة
قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

«فهذا الكلام من اروع الشعر واجملـه، يعجبني فيه هذا الانتقال من ايثار الجمـال البدوي الصريح الذي لم يصنع ولم يتكلف الى ايثار الشيب الواضـح الذي لا يخفيه الخضاب. ثم يعجبني ايضا عدول الشاعر الى الحـق واعترافه بانه يحتمل المشيب كارها له وراغبا عنـه بعد ان صرح بانه لم يرد ان يخفيه بالخضاب. فهو يؤثـر الصراحة على النفـاق وهو يؤثر الصدق على الكذب، وهو يؤثر ان يكون شجاعا تؤذيه الشجاعة وتعنيه على ان يكون منافقا يضر نفسه بالآمال والاوهام»

وقال معلقا على قصيدة (عذيري من عذارى) ص 261:

«فانت ترى في هذه القصيدة اعترافه بالخيبة واستسلامه للمحنة، وضيق نفسه بما يلقي من الشر ويأسه من تحقيق الامل ولكنه مع ذلك حفيظ على كرامته، حريص على عزته، لا يريد ان ينزل عن شرفه مهما تكن الاحداث»

وقال فيما كتبه على قصيدة (لا افتخار الا من لا يضام) ص 251 : «والشيء الثاني الذي تدل عليه هذه القصيدة ان نفس الشاعر قد اوذيت حقا بهذه المحنة الجديدة، واوذيت في اعماقها. فالشاعر محزون، وربما كانت هذه الكلمة اضعف من ان تؤدي ما كان يجد الشاعر من الالم بعد خيبة امله في بدر، وان شئت فقل: ان الشاعر في هذا الوقت كان يجمع في نفسه بين خصلتين متناقضتين او بين خصال متناقضة: فهو قد احس الذل وانكسرت له نفسه، واحتمل ما لم يتعود ان يحتمل من الضيم، وهو يجد لذلك لذعا اليما لا يكاد يطيقه ثم هو يحس كأن نفسه الاولى قد ثابت اليه وكان عزمه القديم قد راجعه، وكان شيئا يناجيه من اعماق شبابه الماضي يدفعه الى ان يثور أيبا للضيم نايبا عن الذين ارادوا ان يضيموه، وهو من أجل ذلك يحس كبر نفسه وعزتها وارتفاعها عن صغائر الامور».

فها انت ترى ان كل ما نفاه الدكتور عن المتنبي من الفضائل الخلقية في تلك الفقرة الموجزة قد عاد فاثبته له وحلاه به في غير موضع من كتابه بابسط عبارة واحسن وصف، وزاد

على ذلك اشياء اخرى مما لم يكن ذكره في تلك الفقرة، ولو تتبعنا كلامه في هذا السبيل لطال بنا الامر وكفاك من القلادة ما احاط بالعنق.

واما النقطة الثالثة وهي مساواة المتنبي للشعراء عموما وعدم امتيازه عنهم بشيء فلا ندري ما نأخذ وما نذر من كلام الدكتور في ابطالها والكتاب كله اشادة بمواهبه الفنية ومميزاته العديدة التي لا يشاركه فيها احد من شعراء العربية سواء القدماء منهم والمحدثون؟ وقد علم ما يمتاز به اسلوب الدكتور في الكتابة من الاطناب الكثير وتكرار الجمل واعادة الكلمات، فهذا يمنعنا من كثرة نقل كلامه خوف التطويل ولكنه في الوقت نفسه يكون حجة واي حجة على اثبات ما نذهب اليه من ان الدكتور في تنقيصه للمتنبي انما كان صادرا عن عصبية اقليمية ونعرة قومية، فلما جاوز المحل الذي اوحي اليه شيطانه فيه بكتابة تلك الكلمة المغرضة رجع الى رشده وانصف الرجل واعطاه حقه من التقدير والاعجاب في كلمات بليغة تفيد بتكرارها واطنابها تاكيدا لما يقول وتحقيقا لما يرتئي.

وهذه بعض اقواله في هذا المنحى. قال في ص 311: «وليس من الاسراف في شيء ان يقال ان للمتنبي في سيف الدولة ديوانا خاصا يمكن ان يستقل بنفسه. وهو ان جمع في سفر مستقل لم يكن من اجمل شعر المتنبي واروعه واحقه

بالبقاء، بل من اجمل الشعر العربي كله واروعه واحقه بالبقاء.

وقال في ص 319 «وخصلة ثالثة يمتاز بها شعر المتنبي في هذا الطور وهي انه قد استطاع لا ان ينشيء فنا جديدا من فنون الشعر، بل ان ينمي فنا من هذه الفنون ويقويه، ويكثر القول الجيد فيه، حتى يمنحه من الامتياز والاستقلال ما يجعله فنا قائما بفنه. اريد بهذا الفن وصف الجهاد بين المسلمين والروم» ثم قال بعد كلام طويل من هذا المعنى اكثره على طريقة الدكتور مما يؤكد بعضه بعضا، ص 321 :

«ومن هنا تجد في وصف المتنبي لحروب سيف الدولة عند الثغور فتوة عربية اجتماعية ان صح هذا التعبير. وترى هذه الفتوة العربية الاجتماعية تشيع في وصف المتنبي حية قوية مضطربة شديدة الاضطراب، كأنها الكهرباء لا تكاد تتصل بهذا الشعر حتى ينتقل اليك ما صور فيه المتنبي من حياة هؤلاء المجاهدين، وما كان يملؤها من نشاط فيه الامل والابتهاج وفيه الاكتئاب والابتئاس، وفيه الثقة بالنفس والايمان بالحق والارتفاع عن صغائر الامور دائما».

ونحن نستطيع ان نفهم عجز الاستاذ بلاشير عن ان يذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبي، وان نعلله وان لم يكن في حاجة الى هذا التعليل. فجنسية الاستاذ واختلاف مزاجه وطبعه واخشى ان اذكر دينه ايضا، كل هذا يجعل تأثره بهذا النحو من شعر المتنبي قليلا ضئيلا. وربما جعله تأثرا

عكسيا وربما دفع الاستاذ الى الغض من هذا الشعر، والازدراء له. اما نحن فان هذا الشعر يثير في نفوسنا عواطف اخرى ويستتبع فيها حركات لا تنتظر من نفس الاستاذ بلاشير وامثاله من العلماء الاوربيين»

فمرحى للمتنبي الذي استطاع ان يؤثر في دكتورنا المحترم، كل هذا التأثير ويجعله يشعر بشعور المسلمين وينعي على العلماء الاوربيين عدم الاحساس بجمال شعره في وصف الجهاد المقدس مما نخشى ان يؤدي بنا الى القول ان القرءان الكريم على بلاغته واعجازه لم يستطع ان يؤثر في الدكتور مثل هذا التأثير لما كان يكتب تأليفه العظيم (في الشعر الجاهلي) فقال ما قال وسجل ما سجل. ولكن لعل الدكتور تاب لله توبة نصوحا مثل توبة المتنبي من القرمطية التى الصقها به الدكتور الصاقا. وان كان هو لم يرض من الشاعر هذه التوبة وعدها من ذنوبه التي لا تغفر!

وهاك اقوالا اخرى للدكتور في الموضوع. قال ص 328: «وخصلة رابعة يمتاز بها شعر المتنبي في هذا الطور ايضا وهي انه قد وثب بشعره حين اتصل بسيف الدولة وثبته الاخيرة التي رفعته الى الاوج وضمنت له مكانه بين الفحول من شعراء العربية... لانه ملك ناحية الفن حقا، وجعل يتصرف بالفاظه ومعانيه كما كان يتصرف بها الفحول، واثبت شخصيته قوية واضحة ممتازة من غيرها، واصبح مرءاة لنفسه لا لابي

تمام ولا للبحتري، واصبحنا نستطيع ان نقرأ القصيدة من شعره فنقول: انها قصيدته هو لم يتاثر بها هذا الشاعر او ذاك».

وابلغ من هذا قوله في القصيدة الاسلامية التي مطلعها: ليالي بعد الظاعنين شكول، ص 443: «فالمتنبي يبدأ القصيدة بنفسه حزينا مفتخرا، ويختم القصيدة بنفسه مبتهجا منتصرا، ويمنح اكثر القصيدة وخير ما فيها لا لسيف الدولة وحده، بل له ولجماعة المجاهدين معه في سبيل الله الذائدين عن حوزة الاسلام وحسب العرب، ولجماعات اخرى من المسلمين لاهية عن الجد ساهية عن المجد منصرفة الى المخازى والآثام. فالشاعر مغن، والشاعر مادح، والشاعر قاص. والشاعر هاج، والشاعر مفاخر متحمس، والشاعر يجمع اكثر فنون الشعر في هذه القصيدة التي لم تسرف في الطول».

فانظر كيف جمع للمتنبي اكثر فنون الشعر حتى القصص الذي هو من اندر النادر في الشعر العربي، فهل هذا لا يعد امتيازا بين شعراء العربية على العموم؟

واختم بما قاله الدكتور متحدثا عن نفسه في انفعال عظيم وتأثر لا يوصف بالمتنبي وشعره ص 628: «واقرأ هذه الابيات التي لا اعرف اجمل منها ولا اصلح للغناء:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي

شيئا تتيمه عين ولا جيد

يا ساقيي أخمر في كؤوسكما

ام في كؤوسكما هم وتسهيد

أصخرة انا ما لي لا تحركني

هاذي المدام ولا هاذي الاغاريد

اذا اردت كميت اللون صافية

وجدتها وحبيب النفس مفقود

اما انا فمفتون بهذه الابيات وبالثلاثة الاخيرة منها خاصة. وما اعرف ان وجدت في كل ما قرات من الشعر العربي ما يشبهها جمالا وروعة، ونفاذا الى القلب وتاثيرا في النفس ومهما احاول فلن استطيع تصوير ما يملا نفسي من الحزن حين اسمع تحدثه الى ساقييه وسؤاله اياهما عما في كؤوسهما اخمر هو ام هم وتسهيد؟

ومهما اقل فلن استطيع ان اصور اعجابي بهذا البيت الذي يسأل فيه عن نفسه، ما له لا يطرب للخمر ولا يطرب للغناء. وما اعرف بيتا يصور السكون وجمود النفس وموت القلب خيرا من هذا البيت، وهو على تصويره الرائع للسكون والجمود والموت من اشد الشعر تحريكا للنفوس واثارة للطرب الحزين في القلوب.

ثم انظر الى هذه الحسرة التي يصيح بها البيت الاخير صيحة اليأس والقنوط، لانه يبتغي المدام فيظفر بها ولكنه وحيد قد فقد حبيب نفسه، فهو لا يستطيع ان يلهو وحده ولا ان ينعم بلذة وحيدا.

الى هنا ننتهي مرغمين من هذه الانتقال التي أفدنا منها تزييف ما زعمه الدكتور عن المتنبى في تلك الفقرة الغريبة، وافدنا منها ايضا تعريفا بفضائل المتنبي ومزاياه وشاعريته البليغة وفنه البديع.

والحق ان الدكتور في تلك الكلمة السوداء عن المتنبي كان في حالة غضب وتوتر عصب من قراءة هجو المتنبي «للاستاذ كافور المصري» وللغضب سلطان على النفوس لا يقهر ولذا فان الحاكم مطالب شرعا ان لا يفصل بين الخصوم في ساعة الغضب. انما الدكتور الفاضل لم يعبأ كما هو شانه بهذا التقليد ولم يتقيد بذالك الواجب فحكم حكما مسمطا على المتنبي وازدراه وهضم حقه وكاد ان يعدمه من الوجود. وذلك برغم قوله في ص 618: «وما ينبغي ان نحب الشعراء او نبغضهم لانهم مدحوا او هجوا. أو لانهم مدحونا نحن او هجونا. وانما ينبغي ان نعرف الشعراء او ننكرهم لانهم مدحوا فاحسنوا المدح وهجوا فاجادوا الهجاء» وهذا رأي صحيح وان كان الدكتور لم يعمل به مع الاسف.

والآن يخيل لي اني داعبت حضرة الدكتور بهذه الكلمات كما داعب هو المتنبي بكتابه اكثر مما دافعت عن المتنبي ومحصت الزور الذي قيل فيه، والا فلا حاجة بالمتنبي الى هذا الدفاع وهذا التمحيص وهو عند الدكتور نفسه في غير تلك الفلتة بالمكان الذي رايت وعند الادباء جميعا ذلك الشاعرالذي ملأ الدنيا وشغل الناس.

وما أحسن ما قال الدكتور في كلمته الختامية في نفس كتاب (مع المتنبي) ص 706 وهو : «وانما ازيد ان الاحظ ان هذا الكتاب ان صور شيئا فهو خليق ان يصورني انا في بعض لحظات الحياة اثناء الصيف الماضي، اكثر مما يصور المتنبي . وانه لمن الغرور ان يقرأ أحدنا شعر الشاعر او نثر الناثر حتى اذا امتلأت نفسه بما قرأ او بالعواطف والخواطر التي يثيرها فيها ما قرأ، فاملى هذا او سجله في كتاب، ظن انه صور الشاعر كما كان، او درسه كما ينبغي ان يدرس، على حين انه لم يصور الا نفسه ، ولم يعرض على الناس الا ما اضطرب فيه من الخواطر والآراء» .



كتاب التصوف الاسلامي

للدكتور زكي مبارك

هذا الكتاب طالما قرأت عنه وسمعت التنويه به ولاكن من لدن مؤلفه حضرة الدكتور زكي مبارك الذي قلت عنه منذ عشر سنوات انه ليس ممن يعمل بقول الشاعر:

ويسيء بالاحسان ظنا لا كمن — هو بابنه وبشعره مفتون

والحق اني تشوفت اليه وحرصت جهدي على اقتنائه، لاكن ظروف الحرب القاسية حالت بيني وبين الحصول عليه والتمتع بالانقطاع اليه مدة من زمن، حتى اعارني اياه صديق عزيز في هذه الايام فلفت نظري بضخامته وكبر حجمه مع كونه في جزأين اثنين، لاني لم اكن أتصوره كذلك، ثم لم البث ان انسللت من مشاغلي وعكفت عليه فقرأته في فترات متلاحقة لاني لم اعد املك امري معه حتى اتممته. اذ واجهت منه كتابا ممتعا حقا، وبحوثا طويلة عريضة يزيدها سحر البيان وسحر الفصاحة لذة واعجابا.

وهل ينكر احد بلاغة الدكتور مبارك وجمال اسلوبه الكتابي، بل شدة تاثيره وقوة حساسيته التي تعدى قارئه فيصير يشعر بشعوره ويحرص حرصه على اثبات هذه النظرية وتزييف تلك ؟ .

وهل لغير الدكتور مبارك تلك المقدرة البيانية والعارضة الكتابية التي يمزج فيها بين الحقيقة والخيال والجد والهزل والتجرد والهوى فياتي اسلوبه مشرقا جميلا يجيش بالروعة والفتون ويفيض بالحسن والاحسان ؟.

اما انه لكاتب عبقري وامام من ائمة البيان اخضع اليراع لحكمه فهو يجري على حسب هواه، لا يجمح الا اذا ارخى له العنان ويسلس في المكان الذى لو ترك لنفسه لجمح واظهر ما امتاز به هو زجه بنفسه في كل مباحثه حيث يُسبغ عليها ظلا من شخصيته القوية بما تشتمل عليه من عواطف وميول واغراض واهواء، لايكتم شيئا من ذلك ابدا كما يفعل غيره من الباحثين فهو ذاتي في كل كتابته وفي كتابته الموضوعية كما في الانشائية.

وانا وان كنا لا نجهل مزية التجرد في البحث فاننا نحب من الدكتور مبارك طريقته هذه التي خرج بها على مواضعات الباحثين وهو لا يزال يعد منهم، وما ذلك الا للباقته وحسن تصرفه في اساليب الكلام، على اذا نستكره منه افراطه في التحدث عن نفسه والتطاول بآثار قلمه بطريقة بهلوانية لا يتحملها اشد الناس اغضاء بل اعجابا به. ولعل هذا هو السبب فى تحامل الكثير من الكتاب عليه. وفى كتاب التصوف الاسلامي شواهد كثيرة على ذلك. منها مسألة وحدة الوجود التي طنطن كثيرا بانه شرحها شرحا لم يسبق به. وما اظنه اقتنع هو نفسه بذلك الشرح !

ثم اننا نلاحظ ان هذا الكتاب فاقد التنظيم لم يضع له الدكتور تصميما اوليا يسير عليه وانما هو جملة مباحث مستقلة كتبت في مناسبات مختلفة، ثم ضم بعضها الى بعض وكون منها الكتاب، بدليل تكرار بعض المسائل وتتميم بعض الفصول التى تقدمت في الجزء الاول - في الجزء الثاني.

ولا نغفل الاشارة الى ان الدكتور لم يستعن في كتابه بشيء من المصادر الاجنبية الا قليلا جدا، الامر الذي كان يزيد كتابه طرافة وقيمة. خصوصا وان لكبار الفلاسفة والمفكرين الاوربيين آراء في التصوف الاسلامي تختلف بحسب اهواء ونزعات اصحابها. فمنها النزيه الذي رفع من قيمة التفكير الاسلامي في هذا الباب، فكان يحق له ان يعتضد به ويطلع قراءه عليه. ومنها المغرض الذي كان عليه ان يناقشه ويرده الى صوابه بتلك الروح التي عهدنا منها الغيرة على الحق والانتصاف للعروبة والاسلام في كثير من المواطن.

وقبل ان نختم كلمتنا هذه نشير الى بعض الهفوات التي استرعت انظارنا اثناء الالمامة العجلى التي المناها بالكتاب لان الدكتور نفسه ممن يحب تتبع امثالها في كلام غيره. وان بنا سنقتصر منها على ما لا يحتاج الى بسط موضوعه ولا فرش موضعه.

وذلك مثل ما جاء في صفحة 137 جزء اول عند الكلام على الحكم العطائية من قوله « وظفرت بعدة شروح اشهرها

شرح الرندي وشرح الشرقاوي ، وهذه الشهرة بالنسبة الى الشرقاوي لا تصح ، والا فاين ذهب زروق الذي شرحها باكثر من عشرين شرحا وكلها معتمدة عند الصوفية فهما وذوقا وتنزيلا وتطبيقا وكثير غيره ممن لا يجيء شرح الشرقاوي بالقياس اليهم شيئا مذكورا.

ثم الرندي بضم الراء نسبة الى رندة بضمها لا بفتحها كما ثبت عند الدكتور وهي مدينة بالاندلس معروفة، وهو محمد ابن عباد امام جامع القرويين وخطيبها المشهور ولا جدال في ان شرحه من اشهر الشروح بل اشهرها على الاطلاق.

وجاء في ص 337 ج ل : «وكان النساء في القرن العاشر يصلن شعورهن ، وكنت احسب ذلك من بدع هذه الايام» وكيف يحسب الدكتور ذلك من بدع العصر او القرن العاشر ، وقد كان معروفا عند العرب من زمن الجاهلية ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأيمة السنن : (لعن الله الواصلة والمستوصلة)؟

وقال الدكتور في ص 352 : «واحراق البخور لا يحسنه كل انسان ، وانما هو فن يجيده «المغرب» وحده» ولهذا كان للمغاربة سوق رائجة في هذه البلاد يعني مصر - ومنهم وحدهم تطلب الكنوز وعليهم المعتمد في كتابة الاحجبة لجذب الاليف الى الاليف، وفي «العباءة البيضاء» اسرار لا يدركها الا الراسخون في علم الغيب» هذا كلامه ونحن نقول نعم! ان المغرب يجيد

ذلك، ولكن عند الاغبياء والبسطاء الذين تنطلي عليهم الحيل ويعمي الطمع ابصارهم، ولذلك له سوق رائجة في بعض البلاد كاسدة في غيرها من البلاد التي انعم الله عليها بالذكاء والفهم، ولا نقول ان تلك البلاد هي مصر، فمصر عزيزة علينا وادبنا يمنعنا من ذمها بالحق او الباطل، ولكن مقتضى هذا الكلام الذي ليس الدكتور فيه باول يجعل مصر كذلك، بل انه ينص عليه نصا بعد ذلك بصفحات قلائل حيث يقول في ص 368: «واكثر اهل مصر لا يعقلون».

والواقع انه كثر ما اتهمت الصحافة المصرية المغاربة بالتدجيل والسحر والنصب والاحتيال، وما عرفت ان من لوازم هذا اتهام المصريين في العقل والادراك. ولكن هل مصر بريئة من تلك التهمة والتاريخ يشهد عليها بالعراقة في ذلك والقرآن يزكي شهادته؟ وهل علم حضرة الدكتور وغيره ممن يلقون الكلام جرافا في هذا الباب ان المغاربة من هذا القبيل الذين يذهبون الى مصر، انما يذهبون لتكميل معلوماتهم والتوسع في هذه الفنون ليصيروا من «الراسخين في علم الغيب» فهم يعلمون من خبايا زوايا مصر ما لا يعلمه المصريون او بعض المصريين، وان الشهرة التي نالوها في مصر في هذا الشان انما جاءتهم من اجل ان (مغنية الحي لا تطرب) والشواهد على ذلك كثيرة لا حاجة بنا الى ايرادها.

وعلى كل حال فالانصاف ان التدجيل والسحر والتكهن

جميعها بضاعة مشاعة بين مصر والمغرب وغيرهما من الشعوب الشرقية والغربية المتمدنة وغيرهـا. ولا يصح تعيير واحد من الشعوب بهـا، وهي لا تكون الا في الطبقات الواطية التي ما خلا منها شعب ولا امة. ومن غفل عن هذا فقد تجاهل اثارة العصور الجاهلية والبدائية في المجتمعـات واخلاق الشعوب.

وجاء في ص 16 ج ني قوله: «ويمكن الحكم بان اول مشكلة عقلية عرضت لاولئك القوم هي الظاهر والباطن او الشرع والحقيقـة» ثم استشهد بآية (ثم استوى الى السماء وهي دخان) على ما ورد في القرآن مما يثير هذه المشكلـة. وفي استشهـاده هذا بعد، واولى ما احتج به هنا قصة موسى والخضر المعروفة وهي حجة الصوفية القائمة على التفريق بين الشريعة والحقيقـة.

وفي ص 20 ج ني نسب الدكتور مبـارك كتاب تلبيس ابليس المشهـور الى ابن القيم وهـو غلط، فان هذا الكتاب للحافظ ابي الفرج بن الجوزي معلوم النسبة اليه.

وفي احدى ثورات الدكتور النفسية قال في ص 247 ج ني: «يرحمكم الله ايها المؤلفون في الاخلاق، فاكثركم من اهل الجبن والتلفيق. واي مظهـر للجبن اقبـح وابشع من أن تصنف الكتب الطوال في مثالب الصوفية على حين يترك الملوك الظالمون في العصور الماضية بلا رقيب ولا حسيب؟».

وهذه سفسطة فارغة وخلط بين موضوعين. فان الوزراء

والملوك ما كانوا يفعلون ما يفعلون باسم الدين والغلو فيه. اما الصوفية فانهم اقاموا انفسهم مقام الهداة المرشدين فكان حقا عليهم ان يتجنبوا اسباب القالة ومواطن الريبة، ولذلك صح نقدهم على ما يصدر منهم من ذلك وباقلام اخوانهم الصوفية قبل غيرهم.

ومع ذلك فهل اذا ترك نقد الملوك والوزراء - وهو لم يترك - يترك ايضا نقد الصوفية وكل زائغ عن الصراط المستقيم؟

والدكتور نفسه الم ينقد الصوفية كثيرا في كتابه هذا وغيره ويكتف بذلك عن نقد الملوك والوزراء ؟

لهذا قلنا ان هذه ثورة من ثوراته النفسية او شطحة من شطحات الصوفية اعدته بها هذه البحوث فلا نواخذه عليها.

هذا ولا يفهمن احد ان هذا تنقيص من قيمة الكتاب او قدح فيه، فقد قدمنا انه من خير الكتب التي تملك على الانسان وقته ويجد فيها من اللذة والسرور ما لا يجده الا في قليل غيرها. وبالجملة فهو فتح جديد في ميدان البحث الفلسفي والاخلاقي والديني ما اجدر الاقلام المثقفة امثال قلم الدكتور مبارك ان تتناوله بالدرس والتمحيص وتخرج لنا من آن لآن ثمرات طيبة الاكل دانية القطوف.

القلب المنتحر

يا رب ان حياة الفضيلة حياة شاقة تنتابها المتاعب من كل جهة، وهذا المخلوق الضعيف الذي يسمى بالانسان لا يقدر على محاربة كل القوات الخفية والمنظورة التي تصده عن سلوك ذلك السبيل ! ...

ان النفس التي بين جنبيه لتميل كل الميل الى حياة اللهو والعبث وتحب اشد الحب ان تتحلل من قيود الاخلاق والواجبات، فتنغمس في لذائدها ومشتهياتها وتتمتع بكل محبوب لها وترتشف كأس هواها حتى الثمالة وما تسد لها جوعة ولا يروي لها عطش ! ...

وان القلب الذي ينحني عليه صدره ليكاد يذوب بين ضلوعه مما يعتلج به من الصبابات الجامحة والرغبات الملحة بريده النظر فهو على الدوام يتلقى منه رسائل الحب والغرام. وان فتر برهة عادت الذكريات تفرخ فيه وساوسها فتثير ما به من شوق وهيام وتفتنه اشد الفتون ! ..

انا لا احب النفاق ولا ارضى حياة المنافقين، فلا اكون باطني يتأجج حبا وغراما ونفسي تذهب حسرات على من هويت، ومع ذلك اتظاهر بالتقوى والزهد واغض طرفي امام الناس وامده اذا خلوت. لبيست حياة هؤلاء القوم الذين كل

امرهم رياءً وسمعة فانا لا اريد ان اكون منهم يا رب!

انا لا ارائي بدين ولا اجاهر بهوى ولكني اشكو اليك يا رب!

انا لست اغلظ كبدا من ذلك الشيخ الصوفي او الشاعر الرقيق الذي اصطنعه الصوفية القائل «خلقت الجمال لنا فتنة» فالجمال خلقك، وهو فتنة للقلوب، هذه القلوب الرقيقة التي بقدر فنائها في حبك ومعرفتها لعظمتك تحس الجمال وتتذوقه وتتهالك على ناره او نوره تهالك الفراش على السراج ا...

أن من شيوخ الصوفية من كانوا يتخذون الغلمان كاللؤلؤ المكنون يطالعون في صفحات وجوههم آيات الحسن والجمال، فانا لست اتقي ولا انقى من هؤلاء الذين ما تصوفوا حتى ادعوا ان فيهم زيادة على مطلق المومنين وان كنت لا اقبل طريقهم في الجمع بين الزهد والاستهتار والتقشف والمتاع، ولا اجعل الدين ذريعة للدنيا، ولا استبدل الشواب الرعابيب ذوات النهود ختامها مسك والعيون ملؤها السحر والثغور تنطف خمرا وعسلا بالشبان المخانيث.

يا رب انت تعلم اني احجم عن كثير من مناهيك لا مراعاة للناس ان يقولوا عني ما اكره، فأهون بالناس عندي لما اعلم من خبثهم وخداعهم، ولا خوفا من ان اصلي عذاب جهنم فانك جبلت الانسان او جبلتني انا على الخصوص ارجى لرحمتك من عذابك، وأوثق بعفوك من عقابك ولكني اهابك

واجلك ان تراني حيث نهيت بالحال التي نهيت عنها فاحجم وانا خجلان واقدم اذا اقدمت وانا خزيان .

ولقد صرت مما عرفت من تقبيحك للفحشاء بحيث لو ابحتها لتورعت عنها ومما كرهت الى الاثم اني لو تيقنت بغفرانك لي للقيتك وانا في غاية الندم على ما فات! ملات عظمتك نفسي ومهابتك قلبي فهل يضير ان نفحت عليهما ساعة من نهار نفحة غرام مقدور او تصباهما هوى متاح؟ ..

لا يا رب! القلب من صنعك والجمال من خلقك وما يصطدم بينهما من الاهواء والميول والعواطف والنزعات هو امر لا تدركه العقول ولا تحيط به الافهام. فانا ماض في الطريق التي يسرت لها ومع ذلك لا اخلي باطني من نية عمل الخير والتأسف عليه ان فاتني . ! . .

هكذا كان صاحب القلب المنتحر يناجيَ نفسه وهو على مائدة الفطور بعد ان هب من نومه متثاقلا متكاسلا، فانه كان ينام كثيرا يرى في النوم منقذا ومخلصا من همومه واحزانه ولم يك كأولئك المحبين الذين يلجأون الى النوم لاجل ان يروا اطياف احبابهم فما كان به من حاجة الى رؤية من احب في النوم وهو يظل يراه في اليقظة ويصطدم به انى ذهب بكرة وعشيا، انما يحول بينه وبينه طائفة من الاعتبارات هي في عرف الحب خرافات واوهام وفي شرعه هو حقائق واحكام

كان مرتبطا بعقد زواج مع فتاة هي مثال الطهر والعفاف

والجمال الحي والانوثـة الخصبة فيرى ان خيانتها من اكبر الكبائر وان ليس عند غيرها الا ما عندها. فليس من العقل ان يبيع بضاعة ببضاعة لا يستفضل فيها شيئا بل ربما وكس فيها كثيرا

وكان قبل ان يرتبط بهذا الرباط المقدس وبعده يستحضر كل قواعد الدين وكل اصول الاخلاق بل ان ما كان يغيب عنه من النصوص الدينية والمبادئ الخلقية في سائر الاوقات كـان يحضره في الوقت الذى يهم فيه بمقابلة من احب واطفاء نار شوقه بـالاجتماع معه ولو جزء سـاعة - كما يقـول ابن الفارض - فيعجب لهذا الذهن البشري كيف يسافـر في اقل من لمحة الى الآفـاق المجهولة وكيف يرود ملكوت السماوات بسرعة لا نسبة بينها وبين سرعـة الضوء العجيبة ثم يعود وقد احضر بين يديـه الماضي كله بمعقوله ومحسوسه ومذكوره ومنسيـه وفتح امامه بابا يتطلع منه الى المستقبل المغيب ويقول اياك!

وكان يذكر انـه طالمـا حذر غيره من موقف كهذا الموقف واستنفـذ كثيرا من الشبان من مزلات الغواية ومداحض الاثم فيشمئز ان يـرى نفسه تقـع فيما يحذر منه الناس ويبتعد ان يستهدف لمـا لا يستهـدف لـه الا الاغـرار والمستهترون.

هذه هي الموانع التي كانت تمنعه من ان يستغرق في حبه ومرضاة قلبه وتجعله يتأخر كل يوم خطوة او يقف حيث

هو بدل ان يتقدم خطوات في الغرام الذي ملك عليه ارجاء نفسه وصار شغله الشاغل وفكره الملازم. ولكن من يدري لعل هذا اللجام الذي كان يلجم به نفسه ويكبح به هواه هو نفسه كان يضاعف رغبته المكبوتة ويقوي ميله الى المحبوب فينقاد بحبله الى الغاية المرسومة من حيث يظن انه ينكف عنها؟..

ونهض صاحبنا عن مائدة الافطار وهو مثقل بهذه الخواطر وخرج قاصدا محل عمله فاذا بها على باب منزل صديقتها كأنها تنتظره لتثير كامن غرامه وتهيج بلابله من جديد.

ورآها فانبهر ورجف فؤاده وبدت علامات الاضطراب عليه فلم يدر ما يصنع. وكانت هي تلحظه وتدري ما به فتهيأت له تتودده وتجامله بابتسامتها الحلوة التي يشرق منها وجهها ويزيد بها اضطرابه، ولكنه اعرض ونأى بجانبه ومر كأنه لم يرها فلم يحيها ولم يلتفت لجهتها ودخل الى محل عمله وهو يتعثر في اذيال السخط والغضب.

هل يدل ذلك على شيء من الادب فاحرى الحب؟ هل كذلك تكون معاملة الرجل المهذب للفتاة الجميلة من معارفه او جواره؟ يا ليت شعري ما ذا يكون اثر ذلك السلوك الخشن في نفسي لونا... لونا حبيبة قلبي ومطمح انظاري؟..

لا، لا، اني لرجل قاس! بل لست برجل فان الرجولة تنافي هذا السلوك الشاذ. كيف اتعرض لها اول مرة واتلطف بها حتى تميل الي واحظى بعطفها ثم اقطع حبلها بهذه الصورة الفظيعة؟

اني لوحشي ضار! هكذا افلت الفرصة الثمينة التي واتتني في عروس احلامي لوسي قبل خمس سنوات وكانت ايام رمضان فتجنبت ان القاها وكان لقاؤهـا اقصى امل لي في الحياة فغضبت ومضت الى غير رجعة!

وهكذا نحرت قلبي بيـدي لما زهدت في الفتاة التي كنت احبها بكل جوارحي خشيـة ان يظن الناس اني انما تزوجتها رغبة في جاه او مال!

وماري الم اكن اجلس واياها على مكتب واحد نتدارس قصص الحب وقصائد الغرام وتعلمني كيف اصرف فعل احب بلغتها وتتبرج لي تبرج الانثى تصدت للذكر - على حد تعبير ابن الرومي، وانا اتحرق شوقا وغراما اليها ولكني اتعمـد الا افهم التعريض ولا اشجع التصريح؟..

يا لله من ذلـك الذراع البض الممتلئ والصدر الناهد الخفـاق والساق الخدلج الـذي ربمـا اختلف مع ساقي تحت المكتب فيحدث ما يحدثه السالب والموجب من اسلاك الكهرباء!

ويا لها من ايام جميلة ما اظن انها تعود ابدا وان عادت فما الفائدة منها وانا بهذا التزمت الرهبـاني والدم البارد الذي لا يصلح للحب ولا الحب يصلح له!..

وثارت نفس صاحبنا بعد أن اصطدمت هذه الخـواطر في ذهنه عشرات المرات فقام عن مكتبـه الذي لم يشتغـل عليه بشئ منـذ جلس اليـه وخرج ليرى لونا ويسلم عليها ويعتذر

اليها ويستدرجها لاحاديث اخــرى ولكنه لم يجدها. وانتظر طويلا بازاء منزل صديقتها وتردد مرات عديدة بين منزلها ومنزل صديقتها فلم تظهر له لا من منزلها ولا من منزل صديقتها.

وانما صديقتها التي ظهرت له فحياها وحيته وتبادل معها بعض كلمات، ورأت مراقبته لبيتها وترصده الطويل لمن فيه فقوي ظنها بانه حولها يحوم وانه لا بد كلف بهـا وان كان يعتريها في ذلك شك قبل اليـوم فقد زال ذلك الشك الان واصبح حبه لها حقيقة لا تقبل الجدال.

ولما رأى هو ان صاحبته غابت وان صديقتها هذه تريد ان تنكأ جرحه القديم عاد الى محل عمله وجلس الى مكتبه وحاول ان يشتغل قليلا حتى ينسى ما به.

كان منزل هذه الصديقة يقع في مقابلـة المحل الذي يعمل فيه صاحب القلب المنتحر، وكانت شابة رشيقة القـوام دقيقة القسمات ناصعة البياض حلوة الجسم خفيفة الروح عاطفية مهندمة لا تقع العين منها الا على ما يستحسن ويغـري. وكان اول ما لفت نظر صاحبنا اليها انها تسكن في ذلك المنزل وحدها وانه لا يري عندها رجلا ولا امرأة. ثم لـم يطل الامر حتى علم انها متزوجة وان زوجها لا يحضر عندها الا في يوم معين من الاسبوع واخبرته هي بذلك تبرعا منها. ورآه هو فرأي فيه شابا جميلا مهذبا يليق بها وتليق به.

وكانت هي لوحدتها تميل الى الرغبة في الحديث مــع

صاحبنا والانس به وكان هو متأثـرا بنظراتها العاطفية يميـل الى الحديث معها ويستحسن جمالها المهنـدم، ثم تطور الأمر من الاستحسان الى التعلق فالغرام!...

وقع الطائر في فخ الصائد فمن ذا يخلصه والصائد لا رغبة له في اطلاقه والطائر على رغبته في لقط الحب يحب الحرية ولا يرضى بالسجن والهوان؟..

هنا برزت لونا او قل طلع القمر لولا ان القمر مـذكر في العربية لا تسمى به الاناث، وهي بنت من اسرة فقيرة تتركب من لونا واختها التي تكبرها بقليل وامهما وتسكن في منزل بطرف الحي، ولا يدري صاحبنا كيف اتصلت بالصديقة وكيف تمكنت اواصر المودة بينهما وكانتا من جنسيتين مختلفتين. انما الواقع انه صار يراها كل يوم في منزل الصديقة تؤانسها وتعينها في شغل البيت وتواكلها. ويراها تخـرج معها للفسحة وقضاء ضرورياتها، ولم تكن هذه الصديقة من اليسر والسعة بحيث تستخدم لونا ولا كانت علاقة لونا بها علاقة الخادم بمخدومتها بل علاقة الصداقة والمودة والمؤانسة والمجالسة.

واهتمت الصديقة بلونا فهندمتها واظهرت من محاسنها ما كان خفيا والقت بها الى الشارع فتنة للناظرين.

وكانت لونا هذه صبية في الخامسة او السادسة عشرة من العمر ربعة قمحية اللون صافية خمرية العينين واسعتهما وعليهما حاجبان اثيثان كانهما خطا ببركار، مبلجان مزججان

خلقة لا صنعة، يتردد نظرك بينهما وبين الهدب الوطف وما تنطبق عليه فيغزوك السحر والبهر والفتون، وتوخذ عن نفسك وتسلم قلبك في اول ما تسلم ولا تستطيع ان تقاوم ولو لحظة واحدة. وتحت ذلك انف منبسط قليلا لو لم يكن كذلك لما انسجم مع هذا الوجه المنبسط ايضا. وحوله وجنتان موردتان دائما. وتحته فم واسع ذو شفتين لمياوتين كانهما شهدتان تقطران عسلا، فاذا انفرجتا انفرجتا عن ثغر مفلج مصقول ولثاث حو معلولة. وما يهزم الفؤاد ويخدر الاعصاب كابتسامة هذا الثغر التي تشترك فيها العينان والوجه بجميع تقاطيعه ولا سيما نقرتان تبدوان بجانب الفم وتحت الوجنتين، فيجئ من هذه الابتسامة اشراق وجمال لا يكيفان وانما يحملان المرء على ان يقضي شهيدا في هذا المعترك ولا يحدر عينه!..

اما النحر والصدر وما عليه والذراعان وما اليهما فاشياء كلها شهوة واغواء ولا يستطيع الوصف ان يقربها فاحرى ان يمثلها كما هي!

وكان لها لمة كستنائية اللون حريرية الملمس لماعة جذابة تعشق من وراء فكيف بها اذا اقبلت تنوس على ذلك الوجه وذلك القوام اللذين هما من اجمل ما خلق الله؟!..

· هذه بعض الخطوط التقريبية لصورة لونا التي هي موهبة من الله لاسرتها الفقيرة وكنز يعوضها ما فقدت من غنى ومتاع وكم في البيوت الفقيرة من هذه الكنوز الغالية والجواهر

الثمينة تكون سلوة لذويها ومفتاحا لباب الامل والرجاء !..

فلما ظهرت لونا في الميدان كانت بلسما شافيا لصاحب القلب المنتحر من حب الصديقة ورقية نافعة له في الافاقة من تلك الغشية التي كانت ستجعله مثلة بين الناس.

ولكن المسكين ان كان افاق من حب الصديقة فانه وقع في ورطة اعظم وداهية اطم وهي حب لونا حبا ملك عليه جميع مشاعره وقاده اليها بحبل مفتول من شغاف قلبه وشرائح جوارحه فصار اتبع لها من الظل واميل من الغصن الرطيب كلما مرت امامه او نظرت اليه او ابتسمت او سمع صوتها او تخيلها وهما. وصار لا شغل له في المكتب الا ترصدها وتتبع خطواتها فكان يعرف ان كانت في بيتها او بيت صديقتها او في الشارع بحيث يخرج فيصادفها في المحل الذي حزرها فيه.

وكان لا يقدر ان يستغرق في الحديث معها لان الصديقة تقع في طريقه وهي لا تكاد تفارقها. ثم هو يرى ان الاسترسال في حبها ومفاتحتها به جناية عليها وطيش وسفاهة من جهة اخرى، انما هذا الرأي لم ينفعه ولم يثن عنانه. وهل بقي فيه مع هذا الحب الجنوني ما يستجيب لداعية عقل او يصيخ لوحي ضمير ؟..

ومضت على صاحبنا عدة اسابيع وهو بهذه الحالة الشاذة يتحرق لوعة وغراما على لونا ولا يجد اليها سبيلا. ولاحظت عليه الصديقة انه انصرف عنها ولاحظ عليها انها استانست كثيرا

بلونا. وادركت لونا انه يهيم بها حبا فلم تنفر منه ولا انكرت عليه بل بالعكس صارت تعطف عليه وتتلطف به. وآنسه اولا هذا العطف واعتبره مشجعا على التقدم اليها بغرامه ولكن اني له ذلك وهذه اشباح التهديد والوعيد تلوح له من قريب وبعيد، وتلك صديقتها يخجله ان تظهر عليه وتحسبه محتالا متلاعبا بقلوب النساء. فاول ما تفعل انها تنصح لونا بالحذر منه وتصوره لها في صورة الاثيم الافاك ؟!..

وياليته كان حقيقة من اولئك الوصوليين الذين لايأبهون بهذه القيم الاخلاقية او قل بهذه الاوهام السخيفة، اذن لكانت لونا الان بين يديه ومتاعا خالصا له من دون الناس،ولم يبق معذبا مفتونا بهذا الغرام الذي وقع عليه من السماء ولم يجد منه سبيلا الى الخلاص!...

كذلك كان صاحبنا يفكر ويقدر ويعزم ويتردد حتى افضى به الحال الى الغلطة الشنيعة التي ارتكبها مع فاتنة لبه ومالكة قلبه في ذلك الصباح حيث مر عليها ولم يسلم وتجاهلها واعرض عنها ثم خرج بعد قليل يبحث عنها ليترضاها ويعتذر اها فلم يجدها.

وقد قضى يومه ذلك في تطلبها والتعرض لها في المواطن التي كانت تتردد اليها فلم يعثر لها على اثر وكأنها تعمدت ان تحتجب عنه في ذلك اليوم جزاء وفاقا على ما تعمد من جرح كرامتها.

ولما يئس من رؤيتها عاد الى بيته وهو يعض بنان الندم على ما فعل ويقول يا لي من جاهل احمق! اجني على نفسه ما لا يجنيه العدو على عدوه فلو اني فكرت قليلا لعلمت ان حب لونا قد استقر مني في الاعماق وانه ليس من السهل انتزاعه بهذه السرعة، وعلى الاقل كان يلزمني ان اداريه لا تفادي تعب هذا النهار. فها انا بعد ان كنت اشتكي من تعب الفكر وشغل البال اضيف الى ذلك تعب الجسم وخيبة الامل. ثم يعود ويقول ما لي لا اجعل هذه هي الخاتمة ويكون الله عز وجل قد هيأ لي الاسباب لينقذني من هذا العذاب؟

ولكن هيهات! فان هذا الخاطر ما يكاد يرد على نفسه حتى تتمثل صورة لونا امامه وتضرم نار وجده وغرامه فيستغرق في مشاهدتها والتملي بمحاسنها ويرجع على نفسه باللائمة لانه اغضب ذلك الوجه الجميل ويفكر اين تكون في تلك الساعة؟ وهل بقي بنفسها أثر من صدمة الصباح؟ ويتمنى من صميم قلبه ان تكون احسنت تاويل ذلك السلوك منه والتمست له عذرا كيفما كان.

واخيرا يلجأ الى سلوته الوحيدة ومعاذه الذي يلوذ به في مثل هذه الازم وهو النوم فيستغرق فيه الى الصباح. ويرى لونا في احوال مختلفة لا يضبط منها شيئا وعندما يستيقظ يجد نفسه قد اطمأنت قليلا ولم تبق فيما كانت عليه من ثورة ويعجل بالخروج عله يصادفها فيكفر عن زلة الامس ولكنه يخيب امله

فلا يراها وانما يرى صديقتها ويهم بسؤالها عنها ثم يتراجع ليلا يكشف الغطاء عن قضيته معها.

ويظن ان من الخير له كونه لم يرها لتزداد نفسه اطمئنانا ويزول من نفسها اثر تلك الصدمة فاذا لقيها بعد لم ينكر من علاقتها معه شيئا. ولذلك لم يلح سحابة ذلك النهار في طلبها وابتغاء لقيها حتى اذا كان العشي وخرج يتفسح بشاطيء البحر يروح عن نفسه من تعب تلك الايام ويؤمل ان يصادفها هنالك مع الصديقة اذ اعتادتا ان تكونا في ذلك الوقت تتفسحان على الشاطيء مع المتفسحين : اذا به يراها من بعيد تقطع الشاطيء جيئة وذهوبا ولكن لا مع الصديقة كما كان يتوقع بل مع شاب متأنق من بني جنسها وهما في حالة من الغبطة والسرور لا توصف.

وكذب عينيه اولا وارتاب في ان تكون هي فاقترب منها ورآها راى العين وحياها فحيته ولكن بدون اهتمام ومضت في سبيلها مع صاحبها وتركت صاحبنا للاحزان والآلام!..

صدم صاحبنا في شعوره صدمة عنيفة واحس قلبه يتمزق قطعا قطعا واظلمت الدنيا في عينيه وود لو يسافر من ساعته الى اقصى الارض حيث لا يسمع ولا يرى ما يذكره بحبه الفاشل وانهزامه هذا، ومضى يتحامل على نفسه ثقيل الخطى وئيد الحركات يلتفت فيرى امله المحطم وهواه الضائع متخلفين وراءه فيسمر في مكانه ويكاد يسقط مغشيا عليه. ثم يمضي ويلتفت فتغيم عيناه وتحول الدموع بينه وبين أن يرى شخص من

احب مع غيره وتمنعه الكبرياء من البكاء فيمسح عينيه ويتكلف التجلد. ثم يمضي ويلتفت فتكون قد غابت عنه وصار بحيث لا يستطيع رؤيتها فيقول في نفسه هكذا ذهبت عني الى الابد واصبحت لا طمع لي فيها لاني قبل ان يتفتح قلبها لغيري كنت امني بها نفسي وكنت اريد ان اعيش واياها في ظلال هذا الحب الافلاطوني برهة تعد باجيال ولا تحسب من اوقات هذه الحياة الدنيا. اما وقد رمت قلبها سهام «كوبيد» واطلعت على دنيا الغرام وذاقت افاويق اللذة وحلاوة الوصال فاني لم يبق لي فيها حظ ولا نصيب.

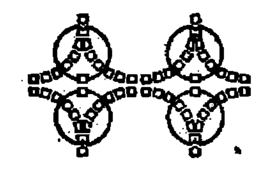
الوداع! الوداع! يا فاتنة لبي ومعذبة قلبي. انعمي بالا وقري عينا فما اغبطني بان تكوني مسرورة مغتنمة ايام شبابك الجميلة!..

اما انت يا قلبي المحزون فهذا خنجر اليأس المشحوذ اغمده في احشائك واقطع به نياطك ليسكن بلبالك ويهدأ حفقانك وتستريح الى الابد من عذابك الاليم!

وهكذا طويت صحيفة هذا الحب من حياة صاحب القلب المنتحر واعانه على نسيانه انه كان يرى لونا تسرع الى الانحدار في هاوية الاستهتار فيذبل عودها وينصل لونها ولا تعود تملأ الفراغ الذي كانت تملأه من نفسه. ولكن انى له ان ينسى تلك الصورة الفاتنة التي ارتسمت في مخيلته اول مرة فلم تفارقها ابدا؟..

ولذلك فهو يتخذ من اخت لونا مذكرة بها ومخيلة اذ كان فيها مشابه منها وملامح، ولولا فرط امتلاء في بدنها وبروز قليل في جبينها لكانت هي بعينها لا تفترق عنها بشيء.

وانما هو لا يستغرق في هذه المشاهدة ولا يبالغ في هذا التخيل خشية ان يقع من جديد في ورطة يعسر عليه التخلص منها.



سـرقـة فـنيـة

عزمت على الرجوع من مدينتي تطوان الى مدينتي طنجة، لان مهمتي التي استغرقت في هذه المرة اسبوعا كاملا قد انتهت. ولم يبق لي الا ان احزم امتعتي واولي وجهي شطر جوهرة المحيط، وقد كلفت احدى عاملات الفندق الذي اتخذه مركزا فقط. حيث لم تكن بي حاجة ابدا الى فندق انزل فيه في مدينة كل بيوتها الكريمة مثل بيتي.

اقول كلفتها بانزال حقيبتي والكتاب الذي كنت اخلو اليه حين اجد الفرصة للقراءة وهو كتاب ذكرى ابي الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام، فانزلتهما الى اسفل واودعتهما عند البواب بينما كنت انا اسدد حساب الفندق واوصي بحمل الحقيبة الى محط شركة السيارات في موعد قيام السيارة التي تتوجه الى طنجة.

ولما حان الموعد توجهت الى المحط للركوب الى طنجة فاذا بصبي الفندق ومعه الحقيبة، فسلمها الى خادم السيارة فوضعها على سطحها مع امتعة بقية المسافرين. وما هو الا قليل حتى تحركت السيارة قاصدة طنجة.

وقد مررنا مسرعين في بسيط الوادي المنخفض ثم صعدنا متباطئين في ثنية الجبل الشامخ، وبعد ما استوينا على قمته

اخذنا نتحدر شيئا فشيئا بين تعاريج الاخدور الذي اسلمنا الى طريق مستقيمة انتهينا منها الى مركز « البرج » على حدود طنجة.

وهناك وقفت السيارة ونزل المسافرون وبديء بانزال المتاع لتمثيل مهزلة الحدود التي تقضي ببحث جواز السفر وفحص المتاع وربما المسافر نفسه بين البلدتين المتجاورتين في التراب الواحد من القطر الواحد! فياليت لنا قليلا من هذه الوقاحة الادارية لنحمي كثيرا من الحقوق التي يذهب بها الخجل المقوت!..

وقفت بازاء السيارة اشهد هذه العملية. فكان العمال يأخذون الحقائب والامتعة الى مفتش الجمرك والشرطة يراقبون الحركات والسكنات ولما اخذ احد العمال حقيبتي من على سطح السيارة فتحها وقال للشرطي: هذه فارغة فهل يجب انزالها وفحصها هي الاخرى؟.. قال الشرطي: لا ولكني قلت كيف تكون فارغة؟ اين ما كان بها من اللباس والاشياء الاخرى؟

وهنا انقلب اشمئزازي من التفتيش حرصا على ان تنزل الحقيبة كاخواتها وتفتش كما يفتش غيرها من حقائب الناس وصرت ارى ان المغبون يومئذ هو الذي « لا درهم له ولا متاع » يفتش!

ونزولا على الحاحي واحتجاجي المتكرر انزلت الحقيبة فاذا بها مفتوحة الاقفال فارغة لاشيء فيها ولم يكن لي بد من توجيه التهمة الى خادم السيارة الذي لم يظهر عليه اقل

ارتباك ولم يبال بالامر وزعم انها كذلك كانت لما اتى بها صبي الفندق وانه حين ناوله اياها كانت اخف من الريشة دليل فراغها وعدم احتوائها على شيء.

وانا وان لم اصدق ما قال، لم يبق لي الا ان آخذ دليل الاثبات من شرطة المركز بان الحقيبة وجدت فارغة على سطح السيارة حتى يتأتى لي ان اتابع الاجراءات اللازمة بعد الوصول الى طنجة.

وعدت الى السيارة وكنت افكر في القضية واجيب على سؤال الفضوليين من ركاب السيارة واسمع تعليقاتهم على الحادثة وما منهم من احد الا وهو يتعجب من عدم اختباري لها قبل الركوب ورفعها ولو لمعرفة مقدار ثقلها حتى ليوهمنك حديثهم انهم دائما يعرفون ما سيقع فيستعدون له قبل ان يقع!

وما ان وصلنا الى طنجة حتى اخذت اتجاهي الى مركز الشرطة فقابلت احد رؤساء الاقسام الذي تعجب من الحكاية وقال ان هذه سرقة فنية على الطريقة الامريكية ! ولا بد انها كانت مدبرة بين احد اللصوص وصبي الفندق. وشرع في كتابة تقرير بالقضية ولائحة بالاشياء التي كانت تحتوي عليها الحقيبة على حسب ما تلقاه مني.

وهنا ذكرت كتاب ذكرى ابي الطيب الذي لم اكن جعلته في الحقيبة بل تركته موضوعا فوقها واوصيت عاملة الفندق بانزاله معها، فزاده في اللائحة ! ـ وبعد ختمها اكد

لي انه سيتخابر مع شرطة تطوان تلفونيا وان اول من سيواخذ في القضية هو صبي الفندق وانه ان لم يقر بفعلته وشركائه فلا بد انه سيقضي ليلته تلك في السجن تحت طائلة العقاب . ومن ثم ودعته وانصرفت.

وكانت حوالي الساعة الثامنة مساء حين رجعت الى البيت بحقيبتي الفارغة التي تشبه خفي حنين، فكانت حكاية طريفة من اغرب ما سمعه الاهل والعيال. وكانت موضع حديث وتعليق طويلين. وكانت ربة الدار تتأمل في الحقيبة فتشتبه فيها وتقول انها جديدة، فاقول لها وهل حقيبتي بالية ؟ ثم اقول يجوز انهم ابدلوها بحقيبة جديدة من لونها وشكلها ولكنها فارغة واخذوا «العامرة». فتقول هي وعلى كل حال فقد ربحث حقيبة جديدة ! . .

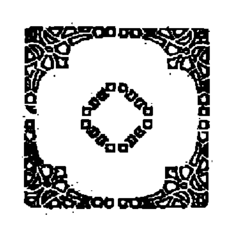
وتمضي في التندر علي بما لم يسمعه حنين لما رجع الى اهله بخفيه الجديدين وضيع الراحلة بما عليها . ! . .

- ولما كان الغد بينما انا اتهيأ للخروج من المنزل اذا بالباب يطرق واذا باحد سكان المدينة المعروفين حاملا للحقيبة العامرة وكتاب ذكرى ابي الطيب فقدمها الي وقال اني كنت بتطوان امس نازلا في نفس الفندق، واني رأيت حقيبتك عند البواب فاعجبتني واشتريت حقيبة مثلها واودعتها عنده. ولكنك اخذت حقيبتي وتركت حقيبتك. وقد اوصاني صاحب الفندق ان ابلغك حقيقة الواقع واسلم اليك الحقيبة

واخذ منك حقيبتي بعد ان تأكد من شخصيتي ووثق بي كل الوثوق.

وشد ما كانت دهشتي لهذا الاتفاق الغريب وعجبت كيف ان البواب كان باردا مثلي فلم يميز الحقيبتين ولم يرفعهما ولو لمعرفة ثقلهما حتى يدرك ان احداهما فارغة والاخرى عامرة! وشكرت صاحبي وسلمت اليه حقيبته وانا لم اقض العجب من هذه الواقعة.

وهنا وجدت ان امامي واجبا هو اعلام الشرطة بالعثور على الحقيبة الضائعة وحفظ القضية المرفوعة ضد الفندق وعماله بتطوان فلم اتقاعس عن القيام بهذا الواجب على وجه السرعة. وخرجت في الحين وقابلت رئيس القسم وابلغته صورة رجوع الحقيبة، وحقيقة الواقع ورجوته ان يتلافى الامر بسرعة ليلا يقع محظور لصبي الفندق او غيره من العمال، فطامنني بان التقرير لا زال لم يرسل وانه لم يتكلم امس بالتلفون مع شرطة تطوان! وان الدنيا بخير!...



الصــورة المعلقــة

ترددت في مناسبات مختلفة الى منزل بعضهم ممن له راي في كل موضوع وتشوف الى المشاركة في كل مشروع بقطع النظر عن صبغته وعدم اعتبار مبدئه وغايته فكنت ارى في صدر البيت صورة احد العاملين في الحقل الوطني محاطة بقطار من التبجيل والتعظيم من رب البيت وكافة اعضاء اسرته وغبرت مدة غير قصيرة على هذه الحال ثم رأيت ذات يوم صورة شخص آخر معلقة في مقابلة الصورة الاولى من البيت نفسه وهذا الشخص هو ممن يمتون الى الوطنية بسبب وبينه وبين رجالها وشائج نسب هذا غاية ما يمكن ان يقال فيه وان كان هو لا يرضيه هذا الوصف المتواضع ابدا فلما رايت تلك الصورة الثانية قلت زيادة خير وعسى ان يكون ذلك من باب التقدير المجرد لجهود العاملين.

فلما كان بعد حين قليل رايت ان الصورتين معا قد انزلتا من مكانهما ولم يبق لهما اثر في البيت وتبوات صورة اخرى لزعيم محبوب محلهما فلم افرح بظهور هذه الصورة الثالثة الفرح الذي كنت استطيع ان افرحه لولا هذه السوابق لتوقعي ان تنزل هذه الصورة في يوم ما من مكانها كما انزلت سابقتاها.

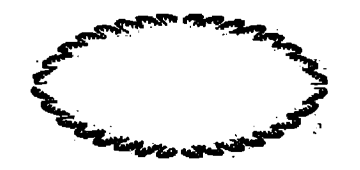
اعرف ان بعض من لا خلاق لهم يسلكون هذا السبيل في التقرب والزلفى ممن تكون بيدهم مقاليد الامور فهم اعوان من والته دولته واعوان عليه اذاعادته كما يقول الشاعر الحكيم ولكن الغريب هو ان يوالي الشخص ويعادي في مدة سنتين او ثلاث رجالا من ذوي الكفاءات والاعمال النافعة ويعلن ذلك بصورة واضحة فيتلقى منه هذا الدرس المرذول في التقلب والاضطراب ابناؤه واهل بيته جميعا ثم هو لا يرجو منه ولا يخاف، اننا بحاجة شديدة الى التربية الوطنية وبحاجة اشد الى الثبات على المبدأ، فان التقلب والتلون والتردد في المبادئ لا نتيجة له الا الانسلاخ من القومية والتحلل من العقيدة والرسوخ في رذيلة النفاق.

ما احق الرجل بالثبات على مبداه وعدم التحول عن فكرته ولو كان مخطئا لان ثباته نصف الصواب ولان يكون معه نصف الصواب خير من ان يكون فاقد الصواب مطلقا.

واني لاحترم الرجل واقدره وهو على غير رأيي وخصم لي في فكري لاعتصامه برايه وتمسكه بنظره ولا احترم المتردد المتلون الذي يكون مع كل امة بدين ولو وافقني في الرأي وجاراني في النظر وايدني في فكرتي، لاني اعلم ان موافقته الي خلاف ومجاراته الي تخلف وتاييده الي خذلان.

لو كان اتباع الرسل والانبياء من هؤلاء المترددين المتقلبين لما اديت رسالة ولا دين الله عز وجل بدين. ولو لم يظفر

الحكماء والفلاسفة بتلامذة مخلصين لما تقررت حكمة ولا عرفت فلسفة بل ان جميع الدعوات الاصلاحية والمذاهب الاجتماعية لو لم يقيض لها المومنون الصادقون لما كتب لها ان تنتشر وينال الناس بفضلها خيرا كثيرا. فحيا الله العاملين الثابتين ولا كان هؤلاء المنافقون المارقون



تحقيق مع صاحب الذيل والتعليق

لـم أرحب بالبحث الذي نشـر في العلم حول كتابي «امراؤنا الشعراء» بقدر ما رحبت بظهـوره في هذه الجريدة؛ لانه مهد لي السبيل للكتابـة فيها في مواضيع الادب والنقـد التي كنت اتحـاشى بها عنها لمـا ارى من اهتمامها بالاخبـار والمباحث السياسية ، فكلما هممت بنشر شيء من ذلك اقـول في نفسي كيف والقوم مشغولون بما هو اهم؟ فالآن حيث فتحت لنـا المجال لم يبق علينا من حرج في تناول هـذه الموضوعات برغم انف السياسـة والاخبار!

واما قبل فإني اشكر صديقنا الاستاذ عبد الرحمن الفاسي على عنايتـه هذه بكتابي «امراؤنا الشعراء» وتناولـه إياه بالنقد من بين سـائر الكتب التي خرجت في عامـه حتى الذي صدر منها في الرباط مقره ومقر مؤلفيـه. وما ذلك الا لمزيد الحفاوة والتقدير فإن الكتاب الذي يقتنى ويقـرأ من اوله الى آخـره يعد ناجحا حقـا ، ثم اذا بعث قارئـه على التفكير في شأنـه والكتابة حوله فان نجاحه يكون عظيما ، ونعوذ بالله من كتاب لا يقتنى فاذا اقتنى لم يقرأ فاذا قرئ لم يقـرأ كله فإذا قرئ كله لم يبعث في نفس قارئه شعورا لا بالاستحسان ولا بالاستهجان ولا يلبث بعد ما يلقيـه من يده ان ينساه ولا يعود يخطـر له

ببال... هذا النوع من الكتب محكـوم عليه بالاعدام من يوم ظهوره على حد ما قال الشاعر فيما هو من هذا الواد:

يموت رديء الشعر من قبل اهلـه
وجيـده يبقـى وان مـات قائلـه

وكتاب «امراؤنا الشعراء» ليس من هذا القبيل بدليل ما صرف اليه صديقنـا الفاسي من وقت نفيس وجهد طائـل، فالحمد لله على ذلك!

ثم اني رايت الناقد قسم كلامه الى قسميـن، تناول اولا الكتاب بصفة عمومية فادلى ببعض الآراء والافكار في منهاج الكتاب وطريقة تأليفه واسلوب العرض لشخصياته، وتتبع ثانيا فيه بعض المواضع التي كانت حرية في نظره بالتتبع والتعليق.

وحيث انـه في الاول كان يطبق اراء شخصيـة لا قواعد نقد مسلمة، وفي الثاني انما جرى بحكم تلك الآراء حين توهمها صحيحة لا نزاع فيها ـ فإني احببت ان اعقب على كلامه ببيان ما فيه من الخطأ او التوهم لان الجريدة عمومية تقع في يد من يحقـق ذلك ومن يقبله على غره ولا يميز لبابـه من قشره وسأتبع تقسيمه فاتناول العموميات ثم اعود الى الجزئيات:

واول ذلك طريقـة عرض هذه الشخصيات من امرائنا الشعـراء وسياقة اشعارهم، العارية عن تحليل نفوسهـم وتمثيل عواطفهـم! وابراز سرائرهم! وتشخـص احساساتهـم وتحديد مذاهبهم ومناقشـة آرائهم في الادب والحياة وربما في الفلسفة!

الى آخر هذه الكلمات الطنانة الفارغة! والغاريـة هي اي تلك الطريقة ايضا عن تناول هذه الاشعار بالبحث والمقارنة والنقد والدراسة حتى يتجلى ما فيها من جمال اخاذ واسلوب بارع وخيال مبدع ومعان سامية الى آخر القائمة اللفظية المعلومة!؟ ويعبر الناقد عن ذلك بالعبارات الآتية: «ولعل في حياة السادة امراء الدولة الموحدية ما يهدي الباحث الى مكامن اسرار هذه الشاعرية، واخلق بحياة اصطلح على تأليف عناصرها الادب والغرام والفروسية والمدام ان تكون حرية بالدرس والتحليل في هذا المقام».

والاحظ بادئ بدء هذا الوثوب من امراء ما قبل الدولة الموحدية اليها وهذا التخصيص بهم كأن الكاتب مقتنع في سريرته بان حياة امراء غير هذه الدولة ليس فيها ما يهدي الى اسرار الشاعرية... ثم اني اقول حقا ان هذه طريقة... وهي طريقة مثلى في دراسة الاثار الادبية الممتازة اذا توفرت بين يدي الباحث ودراسة حياة اصحابها اذا وجد مواد تلك الدراسة من مصادر تتحدث عن نشأتهم ونبوغهم واعمالهم وغير ذلك مما يمكن ان يتخذه دليلا في فهم منشئاتهم الادبية وانتاجهم الفكري وقد اتبعها كثير من كتاب الشرق العربي الحديث في البحوث القيمة التي وضعوها عن ادباء العربية الكبار كأبي العلاء والمتنبي وابن الرومي وابن زيدون وامثالهم، وهي مع ذلك لم تخلص لهم تمام الخلوص ولم يمكن لهم ان يطبقوها

بحيث تعطي الصورة الكاملة للاديب المدروس لما ان كثيرا من دخائل حياة ادبائنا ودقائق اخبارهم فضلا عن تواريخ اعمالهم الادبية غير معروفة لنا ، وبعكس ذلك ادباء الغرب المحدثون الذى يطلع على الناس كل حين تراجم مستوفاة لهم بسبب عنايتهم بتسجيل هذه التفاصيل عن نفسهم او تسجيل الغير لها فيمكن لمؤرخهم تطبيق تلك الطريقة عليهم بكل سهولة ولا سيما مع توافر آثارهم الادبية وكثرتها وتنوعها واذا قلنا ان هذه طريقة ممتازة من طرق التأليف الادبي فليس معناه ان غيرها من الطرق ليس له مزية ولا يصلح اصلا ؛ فواجب على كل مؤلف أن يسلك تلك الطريقة فحسب وإلا كان مستحقا للوم والنقد ، فما ذنب طريقة العرض الخفيف والتعليق العابر حتى نتركها ولا نصطنعها في كتابتنا وتاليفنا وهي طريقة أدبائنا الكبار ومؤلفي العربية الاولين ؟ وهل كل الناس يستسيغون تلك الاساليب المعقدة في الدرس والتحليل والبحث والاستنتاج أو لهم عقول تربط النتائج بالمقدمات والاسباب بالمسببات !؟ وهل تعميم الثقافة الادبية وتلقين الناس مواضع العبرة والفخار من تاريخهم القومي يقتضي ذلك اللف والدوران واللي والتمطيط ؟

وبعد هذا اذا اخترت انا اتباع الطريقة السمحة السهلة واختار الناقد الطريقة الاخرى فهل يكون لزاما علي الاخذ باختياره وقد كنت ـ مع الاسف ـ ساعة كتابتي لتلك الرسالة

أجهل منه ذلك الاختيار ». وشعر الاخ الفاسي بخطاه في النهاية وعدم اصابته في هذا المأخذ فقال « على اننا لا نفرض على الاستاذ كنون اتجاها بعينه ولا نحمله على سلوك سبيل أثر سواها، فسقط الحمل وبطل الفرض !...

ومع هذا وذاك فان محل اتباع تلك الطريقة اذا كانت الآثار الادبية المدروسة متوافرة وكثيرة ومراجع حياة الشاعر او الكاتب بمتناول اليد وعلى طرف الثمام، فكيف ونحن ندرس الشعراء الامراء والمفروض فيهم ان الشعر هو آخر ادواتهم ونافلة كمالاتهم وان من نبغ من صنفهم في الشعر بين ملوك العرب كلهم افراد قلائل، فاما في المغرب خاصة فانما روى البيت والبيتان والقطعة والقطعتان لهذا الملك او ذاك الامير ولم يتوفر على الشعر ويكثر منه من امراء المغرب الا فرد او فردان ؛ ولابد ان نقيد هذه الكثرة بانها نسبية لا مطلقة ونشير الى ان طبقة ذلك الشعر ونسبة بعضه فيهما مقال ، فعلى ماذا يعتمد مدير دراسة شعر الامراء المغاربة دراسة ادبية وافية تظهر شاعريتهم وتطلع القارئ على ما فيها من اسرار الجمال ومواطن الابداع التي يشترك في تكوينها الادب والحب والفروسية والخمر؟

هل يضرب في اودية الخيال ويهيم في عالم الاحلام ويأتي بالفروض المحتملة وغيرها والتقديرات الممكنة وخلافها ليقدم صور هذه الشاعرية المزعومة ويجلي ما لها من اسرار معدومة ؟

اما انا فقد قرأت كثيرا من هذا الهذيان لبعض الناس

وكنت ابتسم ابتسامة الهزء والسخرية من ايغالهم في التقليد وإقامتهم الدنيا واقعادها من أجل بيت أو بيتين او قطعة شعر قالها اديب مغربي ، فيذهبون يحللون ويشرحون ويتعرفون الى نفسية هذا الشاعر واخلاقه وروحه الادبية وعصره - زعموا - من خلال تلك الابيات ، كما يفعل النقاد حينما يتناولون اديبا كبيرا له دواوين شعرية ومذهب في الشعر معروف ورسالة ادبية سامية . ثم لا يقتصر اصحابنا على هذا بل يذهبون الى العتب على من لم ينصف هذا الاديب ويكبره ويجعله في مصاف شعراء العرب المعدودين

أقول اما انا فقد قرأت كثيرا من هذا الهذيان وكنت أبتسم ابتسامة الهزء والسخرية من اصحابه فيا اخي لا تنتظر مني هذا التعمق فاني افضل السطحية في هذا الباب (وما انا من المتكلفين)

ولا تظنن هذا رأيا جديدا لي فقد كنت قدمت منذ سنين لبعض الابحاث الموفقة عن اديب مغربي معروف وكان صاحب ذلك البحث يميل احيانا الى المبالغة في تقدير اثر ذلك الاديب فلم أجد ما آخذه عليه الا هذا الامر ، ونبهته اليه بلطف قائلا إني ارجو منه في ابحاثه المستقبلة الا يغلو في الحكم والتقدير والا يجعل لعواطفه واندفاعاته القومية على عقله سبيلا او كلاما نحو هذا

ونكتفي بما ذكرنا في هذا الموضوع وننظر في مسألة اخرى اثارها حضرة الناقد وهي مسألة ذكر المصادر؟ مصادر البحث التي ادعى ان الكتاب خال منها، ولهجة الغاضب المحنق التي تكلم بها في هذا الموضوع تدل على ان هناك حاجة في نفس يعقوب! ونحن نقول له مهلا ايها العزيز! فذكر المصادر واجب وحق وهو مما تواصى به الاحفاد والاجداد (اذا قلت بكلام خبري ان كنت ناقلا فالصحة او مدعيا فالدليل) ولكنه ليس قاصرا على الكيفيتين اللتين ذكرت بل انه يؤدي باساليب عدة:

فالبحاث الغربيون هم اول من استعمل ذكر مصادر البحث في ذيول الصفحات وتبعهم في ذلك بعض البحاث من العرب المحدثين، فهي طريقة غربية جديدة وتحمل في اثنائها دليل جدتها لانها لا تنسجم الا مع الطباعة التي هي صناعة حديثة ايضا لاستلزامها ذكر ارقام الصفحات من الكتب المنقول عنها ونوع الطبع وزمانه ومكانه ورقم الكتاب في الخزانة الموجود بها ان كان نادرا او غير ذلك. وهي وان كانت لها منافعها الجمة فان لها مساوي بقدر تلك المنافع، ومما نذكره من مساويها ان اصحابها اكثر ما يستعملونها في المسائل التافهة والنصوص المعروفة واختلاف الفاظ النسخ وما الى ذلك

فالقارئ العادي حينما يرى ذيول الصفحات مملوءة بالارقام والاحالات يقول ان هذا الكتاب محقق ومنشور نشرا علميا صحيحا ولو قدر له ان يطلع على دخائله لوجد فيه من التجاوز والاهمال ـ المقصود وغير المقصود ـ شيئا كثيرا بحيث يصير الى الاعتقاد ان ذكر هذه المصادر انما هو للتعمية وتغطية القصور، ولو اردنا ان نشير الى الكتب التي من هذا القبيل والتي نشرها البحاث الغربيون والشرقيون والمغاربة ايضا لطال بنا الكلام ولخرجنا عن الموضوع.

وهناك اسلوب الاسلاف الكرام قدس الله أرواحهم في دار السلام وهو ذكر المصادر في صلب الصفحات الا انهم يختلفون في طريقة اداء ذلك، فمنهم من يشير اشارة خفيفة الى المصدر بان يقول ذكره فلان مثلا، ومنهم من ينقل النص بلفظه ويدل على ابتدائه وانتهائه، ومنهم من يحيل عليه في مكانه الى غير ذلك من الطرق ونحن نستعمل هذا الاسلوب بغير تقيد بطريقة منه، فحين نرى وجوب التنصيص وذكر النقل بلفظه نستعمله، وحين نرى ان الاشارة تكفي نستعمل الاشارة، ولا بد ان القارئ الاديب يدرك سر ذلك ويستحسن موقعه من الكلام ولا سيما في الكتابة الادبية التي ينبغي أن يساير الاسلوب فيها الموضوع في التفنن والابداع ومن محاسن هذه الطريقة إنها لا تشوش على القارئ ولا تقطع عليه خيط الربط بين الافكار

المتابعة بسبب تردد نظره بين الاصل والتعليق كما في الطريقة الاولى.

وهناك طريقة اخرى وهي ذكر مصادر البحث في اول الكتاب او آخره وهي مستعملة قديما عند مؤلفي العرب كما انها مستعلمة عند كتاب الغرب اليوم والغرض الذي هو التوثق مما في الكتاب حاصل بها ولا ريب، وفيها فائدة زائدة وهي حماية جهود المؤلفين من الاهتدام وادعاء الغير لها من غير خجل ولا استحياء ولا سيما حين تكون تلك الجهود معرضة للسطو ولا حامي لها من قانون او خلق كما هو واقع الان في البلاد العربية كلها. فعلى اي حال ان استخراج مكنونات تلك الكتب ـ وان وقع تعيينها يحتاج الى مشقة وتعب في تحصيلها ثم مراجعتها ولا كذلك الطريقة التي تعين مكان النص من الكتاب وطبعة هذا الكتاب ومكان وجوده ان كان نادرا فانها تسهل على الكسالى ومريدي الانتفاع من خدمات غيرهم ما لولاها لما وصلوا الى مرادهم الا بجد وكدح واذا علمنا ان كثيرا من هؤلاء الانتفاعيين لا يتفضلون ولو بالاشارة الخاطفة الى ذكر من سهلوا لهم طريق العمل وجدنا انفسنا منساقين الى اعطاء النصفة لهؤلاء الضحايا المظلومين من الكتاب الذين يلجؤون الى هذه الطريقة.

ونحن كما قلنا نستعمل الطريقة الثانية وهي ظاهرة في كتاب «امراؤنا الشعراء» وكتاب «النبوغ» وزدنا في هذا الثاني

ذكر المصادر مجملة في آخره ومع ذلك لم يكتف الناقد بهذا وقال اننا لا نذكر المصادر في كتبنا فان اراد ان نذكرها له بالكيفية التي يفضلها هو فسنروى في الامر ونجيبه كما قال ابن خلكان !

وتعجب الاستاذ من كوننا ننقل عن المغرب والتاج ابن حمويه مباشرة بدون وساطة المقري هنا وفي النبوغ ونقول له اما هنا فإذا ما نقلنا الا قولا مشهورا وتعليقا معروفا لادباء المغرب مع نسبته لصاحبه وقد نقلناه هو وغيره في النبوغ وفي آخره ذكرنا مصادره كلها ومن جملتها نفح الطيب للمقري ولم نذكر طبعا لا رحلة ابن حمويه ولا كتاب المغرب ومعنى ذلك في المنطق السليم ان ما نقلناه عن هذين المؤلفين وغيرهما مما لم نذكره في المصادر الاصلية للكتاب كله بواسطة هذه المصادر .

حقا اني لم اكن اعرف لماذا يضع الناس الشروح المطولة والحواشي والتقريرات والآن فهمت!.

وتعلق صاحب الذيل والتعليق بناشئة الادب فقال ان هذا العمل فيه تضليل لهم والحقيقة انه ان كان هناك تضليل فانما هو لشيوخ الادب لا لناشئته لان اولئك هم الذين يشتكون لا هؤلاء

وللمناسبة فقط اذكر انني في بعض الآثار الادبية التي اثبتها في النبوغ سهوت حقا ان اذكر مصادرها وهي مصادر غريبة لا تمت للادب وتاريخيه بصلة والى الآن اري جمر

هؤلاء الشيوخ تقف في عقباتها ولا تتجاوزها.

ومما اعجبني من كلام الناقد انه حين ذكر المغرب ورحلة التاج ابن حمويه قال انهما لا يوجدان في خزائن المغرب ولا في مكتبة الاسكوريال وانا افهم ما يريد فلذلك اقول له ان هناك غير خزائن المغرب ومكتبة الاسكوريال ولم يا اخي تحصر مجالي في هاذين المكانين فقط وقد يكون في مصر والشام ولندن وباريس من يمدني بما في خزائنها ولا تدري؟ ومالك تذكر الاسكوريال وتنسى مدريد وفيها ما ليس في الاسكوريال لو عرفت؟ والمغرب؟ الا تعرف ان فيه كتبا مهمة في التاريخ المغربي لا يزال الناس يظنون انها مفقودة مطلقا؟ ولذلك فاني لا ادعي استيعاب كل ما في المغرب فاحرى ما في غيره وان تفضلت علي بهذا التقدير العظيم لتحصرني في ذلك المجال الضيق!

واخيرا ان كان صديقنا الفاسي يقول ان النبوغ خال من المصادر فان صاحب المصدر العظيم للاداب العربية جملة والناقد البصير بهذه الشؤون وهو العلامة بروكلمان يقول انه استفاد من ذلك الكتاب واسف لما فاته منه في اجزاء كتابه المطبوعة وانه يوصي زملاءه من المستشرقين بالاستفادة منه.

3

وننتقل إلى مأخذ آخر شاء الناقد ان يفرض وجوده ليبنى عليه العلالي والقصور والا فهو لو لم يفعل ذلك غير قادر على إلصاق هذه التهم بالكتاب من عدم ذكر أفراد كان يجب ان يذكروا فيه واغفال اشعار اخرى لبعض من ذكر لهم فيه اشعار وغير ذلك من التمحلات وهذا المأخذ هو ما دعاه بالاحاطة والشمول ، ويعني ان الكتاب لم يحط بجميع امراء المغرب الشعراء ولم يسجل جميع أشعار من ذكر فيه

وقبل ان ناخذ في تفاصيل هذا القول نتساءل من اين أتى به ومن الذي اوحاه اليه ؟ ان كان كتاب امراؤنا الشعراء فهو خال من هذه الدعوى بريء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب حتى ان هذين اللفظين «الاحاطة والشمول» لا يوجدان به ولا يمكن ان ينسبا اليه اصلا! وان كان افتراضاً افترضه وسلما اتخذه للاشراف على الكتاب من عل حتى يمكنه ان يقول فيه كيت وكيت فالحكم للقراء المنصفين على هذه الاساليب (المستقينمة) من النقد والطرق (الحكيمة) في البحث!

والذي اصارحك به يا استاذ ، ان هذين اللفظين وهما الاحاطة والشمول لم يخطرا ببالي منذ مدة طويلة جداً ، منذ عهد الازهري والمكودي ، وبعد ذلك لم يبق لهما صدى في ذهني حتى ذكرتني بهما الآن . ومعنى هذا اني بعد ان نسيتهما على

الاقل صرت ازن كلامي بميزان الحقيقة واكره المبالغات جل الكراهة ولم اعد ارى الاحاطة والشمول يتوفران في عمل من الاعمال وخاصة تأليف الكتب ولا سيما في المواضيع العمومية كالادب؛ ذلك النبع الفياض الذي يتفجر من قلب الانسانية العميق الغور العظيم السعة! فكيف اذن تمكن الاحاطة والشمول في موضوع جل مصادره مفقودة والموجود منها متفرق هنا وهناك؟ وهل تعتقد انك بذيلك وتعليقك قد احطت بالموضوع بعدما جمع منه الكتاب وعلى طرقك لجميع الادواب وقناعتك بما فضل عنه في الحساب ؟.

اما الرؤساء العزفيون الذين هولت بأمرهم واستعظمت عدم ذكرهم فإني اتعجب منك في رايك هذا كما تتعجب مني في اغفالهم «وإنا او اياكم لعلى هدى او في ضلال مبين»

وبيان هذا الاختلاف للقارئ المستقل برايه ليستطيع ان يحكم في القضية بنفسه ان الفقيه ابا القاسم العزفي، وبيته من بيوت العلم والدين والرياسة في سبتة. كان قد استقل بهذه المدينة في اواخر ايام الموحدين لما ضعفت دولتهم واضطرب امرهم ثم لما تمكنت الدولة المرينية من ملك المغرب استتبعته فحكم سبتة هو وولده بالتبع لها ثم انتهى امرهم بالعزل والدخول في غمار الناس،

فهؤلاء الولاة، ولاة سبتة، هم الذين يريد الناقد ان يعتبرهم من امراء المغرب ويفرض علينا ان نعتبرهم

كذلك او نذكر الادباء منهم في كتاب امراؤنا الشعراء

ونحن قد ذكرنا في النبوغ ما رضيناه من آثارهم الادبية شعراً ونثراً وترجمنا فيه لنا بغتهم الفذ ابى العباس بن ابي طالب ثم نشرنا له في مجلة السلام ترجمة موسعة كان لها صدى ادبى في الشرق العربي مما دعا الى معارضة قصيدته البائية هناك من احد امراء الشرق الكبار كما سننوه بذلك في فرصة اخري .. وكان هذا كله قبل وقوفنا على مخطوطة الاحاطة أو مختصرها وفيها تراجم اخرى لادباء هذا البيت المجيد وقصائد ومقطوعات شعرية فاتتنا في النبوغ ولكنا لم نفكر قط في ذكرها ضمن مجموعة امراؤنا الشعراء . لان اعتبار العزفيين امراء للمغرب وحشدهم في عداد الدول التي تداولت حكم المغرب وذكر اشعارهم في كتاب امراؤنا الشعراء على هذا الاساس غير ممكن عندنا ولا مسوغ له في نظرنا لا من جهة الواقع ولا من جهة الاستكثار الذي يحرص عليه الناقد ويتذرع اليه بذريعة الاحاطة والشمول. فالواقع ان هؤلاء العزفيين لم يكونوا في وقت من الاوقات امراء للمغرب ولم ينظر اليهم احد هذه النظرة قط فابن القاضي يذكرهم في جملة الفقهاء وان وصف بعضهم بالامارة عرضا وابن الخطيب تارة وتارة ومؤرخو المغرب يذكرونهم في جملة الولاة البارزين والجميع يصفهم بالرياسة ويذكرون حسن امرتهم وعدل سلطانهم وهم يعرفون ان من قام به وصف اشتق له منه اسم. ومع ذلك لا

يسمونهم بالامراء والسلاطين كما ادعى الناقد فهو في عهدته ونسأله هل وصفهم احد بالملوك فهذا الذي بقى من الالقاب الملكية لم يخلعه عليهم!..

ومع فرض انهم ملوك لا امراء فقط فالناقد يعرف انهم كانوا ملوكا لمدينة من مدن المغرب وفي اكثر الوقت بالتبعية لا بالاستقلال، والكتاب موضوع لشعراء الملوك والامراء من الدول التي تعاقبت على المغرب كما في اوله ولو انخرم هذا بذكر من لم تكن هذه صفته لجاز ان يقال ما بال الرؤساء العزفيين لم يذكروا كيف ونحن لما ذكرنا الامير ابا بكر بن تفلويت في الدولة اللمتونية احتجنا ان نوجه ذلك بكونه صهرهم ومن قبيلهم.

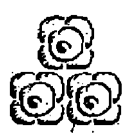
ومعلوم ان المغرب لم يبل بعهد من عهود ملوك الطوائف حتى نعتبر رؤساء سبتة او غيرها ملوكا او امراء فيه بل انه كان دائما وابدا ـ في غير اوقات الفتنة طبعا ـ وحدة لا تتجزأ وكان عرشه الرفيع يحتله ملك او خليفة او امير هو رمز تلك الوحدة، ولم يزل كذلك حتى بعد ان قسمته سياسة الاستعمار الغاشمة وجعلته مناطق ثلاثا؛ فهو كله يدين لملك واحد وليس هنا او هناك الا من يعمل باسمه ويحكم بامره ... ولكن الناقد يحب ان نمزق اشلاء هذه الوحدة ونزيد في عداد دول المغرب دولة لنستكثر من الشعراء الامراء او ليصحح نظره في عدم احاطة الكتاب وشموله!..

وإذا كان الناقد يحرص هذا الحرص على ادخال العزفيين في امراء المغرب فليت شعري ما عدا به عن الدلائيين واستدراكهم علينا وهم احق بذلك من العزفيين لانهم اشتركوا معهم في قول الشعر واتسام كثير من فضلائهم بسمة الادب وزادوا عليهم بانهم ملكوا فاس ومكناس وناحية الغرب الى تادلا وحاربوا سلطان السعديين وهزموه واقتحموا سجلماسة وبقيت لهم السيادة على اماكن فيها حتى بعد ان خرجوا منها صلحا، وعلى كل حال فقد اطبقت كلمة العلماء والمؤرخين على مدحهم والتنويه بدولتهم وناهيك برائية الامام اليوسي في البكاء عليهم لما اوقع بهم مولاي رشيد!..

فلماذا اسقط الناقد ادباءهم من الحساب ولم يستدركهم على الكتاب؟ واين احاطته وشموله اللذان تورك عليهما ليأخذنا بعدم ذكر العزفيين؟ وهل كان العزفيون وهم ولاة مدينة اولى بالامارة والملك من الدلائيين وهم ولاة اقليم فيه عاصمة البلاد؟.. واين ذهب به عن الفقيه ابي حفص عمر الوقاش وقد استقل بتطوان وهي قريبة من سبتة وقال الشعر وادعى الخلافة؟.. أليس هذا اخلالا بشرط الاحاطة والشمول يتوجه على الناقد ويصحح فيه ما قالته العرب (رمتني بدائها وانسلت)؟..

لكنني انا لا اعتبر العزفيين ولا الدلائيين فاحري الوقاش من اصحاب الدول التي حكمت الغرب واستدف لها ملكه

حتى يكون شعراؤهم من الذين يشملهم الكتاب ويدخلون في موضوعه فلذلك لم اذكرهم فيه ولم اتجمل بهذا الاستكثار الذي يقصد اليه الناقد لان لي خطة درجت عليها ونظرا عملت بمقتضاه فلا ملوك الا الملوك المعروفون ولا امراء الا امراء الدول الشرعية والقصد قطع لسان الخصم الذي ينكر على هذا الوطن كل فضل ومزية ادبية، فهذا دليل من نوع آخر يثبت رسوخ قدمه في الشعر والبلاغة وهو مجموع من شعر الملوك والامراء الرسميين متخير منخول لا تزيد فيه ولا تعمل ولو كان المراد المل‌ء والاستكثار لما اقتصر الكلام على العزفيين فقط بل لذكر الدلائيون بالاولى والاحرى ولذكر كل رئيس وحاكم ووزير قال شعرا وانتج ادبا وهم في المغرب كثير.



الى هنا انتهى القـول في القسم الاول من انتقـادات الاستاذ عبد الرحمن الفاسي، وقبل نظرنا في القسم الثاني منها نشيـر الى ان هذا القسم في غالبه انما هو امتداد لفكـرة الاحاطـة والشمول التي الصقهـا الناقد بالكتاب إلصاقاً وهـو بريء منها.

وانظر اليه كيف يبتدئ هذا القسم: «عقد مؤلف امراؤنا الشعـراء الفصل الاول لانتـاج امراء الدولة الادريسيـة. ويبدو المؤلف في هـذا الفصل حريصا على ان لا يغفل من منثـور ومنظـوم المولى ادريس قليـلا ولا كثيرا،» وهذا تقـول منه وتمحل ليتوصل الى غرضه من الذيل والتعليق، فما بنا من حرص على عدم اغفال شيء من منظـوم الامام ادريس ومنثوره ولا منظوم ومنثور غيره من الامراء الذين ذكرناهم في الكتاب. والقـارئ الاديب الذي يمكنه ان يتتبع فصول الكتاب وآثار الامراء المذكورين فيه يجد اننا كثيرا ما نعبر في ذلك بقولنا (ومن شعره، ومن نثره، ومن قوله، وله) ويجد ظاهرا بينا اننا نجتزي في بعض الآثار النثرية بجمل منها وعبارات منتخبة كما فعلنا في رسالـة المامون الموحدي ورسالة الامير محمد العـالم العلوي، ويجد واضحا جليا اننا نطرح بعض الآثار الادبية لبعض الامراء ونذكر المختار منها فقط كما فعلنا في انتاج المنصور الذهبي:

وهكذا كان حرصنا دائما لا على الجمع والاحاطة بل على الاختيار والانتقاء وعرض اجمل الآثار الادبية التي لهؤلاء الامراء. وقد كنا اثبتنا في الكراسة الاولى لدى تدويننا لهذه المجموعة ابياتا ومقطعات كثيرة كان نصيبها بعد ان بيضنا الكتاب الطرح والاهمال لعدم استجادتنا لها والى الآن لا يزال في نفسنا شيء من بعض الابيات التي اثبتت فيه. فهذا الذي لم يشأ الناقد ان يفهمه ولم يرد الا ان يجعلنا نريد الاستيعاب واننا مع ذلك لم نستوعب !...

الا فليفهم، وان كان القارئ قد فهم، ان مقصودنا هو اطلاع الناس على ناحية خصبة من الادب المغربي وازالة الغشاوة عن بعض الاعين التي تنكر على المغرب والمغاربة ان يكون لهم قدم في الشعر والبلاغة، وذلك انما يكون بجودة المعروض وتنخله واختياره لا بكثرته وتفاهته.. فالشعر الذي يحتاج الى الاعتذار عنه وكتابة كلمة (كذا) بازائه(1) لا محل له في هذه المجموعة.. والشعر الذي تضطرب بعض ابياته ويحتوي على عيب فني كذلك نصيبه الاقصاء والابعاد، لاننا لا نفاخر الناس بالعيوب وما يعتذر عنه، وعليه فانا في قطعة مولانا ادريس التي اولها: لو مد صبري بصبر الناس كلهم.. اقتصرنا على اربعة ابيات وكذلك فعل بعض المؤلفين غيرنا

(1) كما فعل الناقد في بعض ما استدركه علينا.

ولم نر والبيتين الباقيين لما في روايتهما من اختلاف اللفظ ثم لتكرر لفظ الهم فيها مع وقوعه في البيت الثاني والرابع وتشابه معناهما مع معنى الابيات الاربعة في الجملة ثم لعيب الإيطاء الواقع بين جزعى في البيت الاول ودائم الجزع في البيت الرابع في رواية الزيادة كما اورده الناقد نفسه ـ فاسلم الروايات هي التي ذكرنا.

واما التصرف في القطعة بالتقديم والتاخير كما فعل الناقد لينسجم المعنى او ابدال لفظ الجزع وهي الواقعة في رواية الزيادة بالهلع لنتجنب العيب كما يجب ان نفعل لئلا نقدم في باب الافتخار اثرا معيبا ـ فهذا امر لا تحتمله الامانة العلمية باطلاق وقد انكر الناقد ما قلناه من عدم الانسجام في الابيات بالزيادة ثم سلمه ضمنا اذراح يتصرف فيها بالتقديم والتاخير ليتم هذا الانسجام! وبعد ذلك رجع يقول ان الانسجام واقع بدون هذا التصرف:

وضاع العلم بين اري وعندي   فيا لله من هاذي الدعاوي

ومن هذا القبيل ملاحظة الناقد علينا عدم التنبيه على ان الابيات الثلاثة (اليس ابونا هاشم) التي انشدها المولى ادريس ليست له كما فعلنا في بيتي (لا ابيات) ابي الشيص الخزاعي اللذين نسبا الى المهدي بن تومرت غلطا. ونحن نكرر له ان هذا المجموع ليس كتابا لتصحيح اغلاط الناس والتعليق على

كتب الآخرين وانما هو باقة من الزهور يراعي فيها الانسجام وتناسق الالوان لتقدم الى الراغبين والمتشوقين ، اما بيتا ابي الشيص فانما نبهنا عليهما لكوننا وقعنا في الغلط الذي وقع فيه الغير فنسبناهمـا في النبـوغ الى المهدي ولما واتتنـا الفرصة لنصحح غلطنا نحن اهتبلناها ولو قدر فأعيد طبع النبوغ منقحا لاختفى البيتان والتنبيه معا من هذه المجموعة.

وتعرض الناقد لذكر ابراهيم بن ادريس المعروف بالمؤبل في المجموعة للشك في مغربيته ولم يكفه قول المؤرخين ان (اصله من المغرب) وانه انما (سكن قرطبة) فقط الى غاية معينة وهي تسيير اي نفي ابن ابي عامر له من الاندلس (فيمن سيره من اهل بيته بعد قتل الحسن بن كنون كبيرهم) فهؤلاء اهل بيت واحد وهم الاشراف الادارسة الذين نقلوا مع (كبيرهم) الحسن بن كنون الى الاندلس وقد نص على هذا الفـرد منهم بالخصوص ان اصله من المغرب ولكن الناقد مع ذلك لا يسلم انه مغربي (ولو طارت معزة!) فاذا كان غير مغربي فلماذا رحله الى المغرب! واذا كان كبيرهم وهو الحسن مغربيا فكيف لا يكون اتباعه مغاربة ؟ ان التجنيس والحماية لم يكونا معروفين في ذلك العهد، حتى نقول ان هذا الامير الادريسي قد بدل جنسيته او اتخذ حماية اجنبية فلم يبق مغربيا!... على انه مع تطريق هذا الاحتمال الذي جرته النكتة فهذا المنصور بن ابي

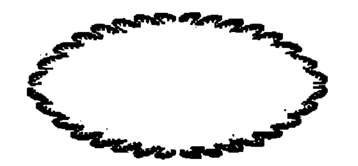
عامر قد عاد فنزع عن الشريف هذه الجنسية او الحماية ورده الى مغربيته !...

ثم قال الناقد انه لا يرتاح لجعل القطعتين اللتين اوردناهما لهذا الامير من قصيدتين مختلفتين كما يعطيه صنيعنا، واننا لم ننقلهما عن ابن الابار الذي توقف في كون الثانية من الاولى ام لا. ونطمئنه الى اننا نقلنا عن ابن الابار مباشرة وهذا لفظه في الاولى: (وهو القائل يخاطب المروانية) وفي الثانية: (وقال الحميدي له قصيدة طويلة يمدح بها مؤيد الدولة هذيل بن خلف ابن رزين صاحب القلاع ويهجو غيره) وذكر منها ثلاثة ابيات الثالث منها حذفناه لاننا لم نستحسنه ثم قال: (ومنها) فأورد البيتين الباقيين ونص على انه لم يذكر منها غير هذه وتوقف في كونها من الاولى ام لا

وانا لاختلاف السياق الذي عند ابن حيان من كون ابياته في مخاطبة المروانيين والسياق الذي عند الحميدي من كون القصيدة في مدح مؤيد الدولة مع تصريع القطعتين معا والعادة ان التصريع وخصوصا عند المتأخرين لا يكون الا في اول القصائد ولا يتكرر في اثنائها رجحت انهما قصيدتان وكفى !..

وحضرة الناقد الذى طرق هذه الاحتمالات كلها في مغربية الامير ابراهيم بن ادريس وادار وجوه البحث في قضية هاتين القطعتين، لم يكلف نفسه قليلا من العناء في البحث عن ترجمة

الشريف عبيد الله بن يحيى بن ادريس ليعلم انه ليس بمغربي وانه قرطبي قح ولا يصح عده في جملة الامراء المغاربة من الادارسة وهذا نص العلامة ابن الفرضي في تاريخ علماء الاندلس على ذلك: « من أهل قرطبة، يكنى أبا عثمان سمع من ... وكان متفننا في ضروب العلم وكان الشعر أشهر ادواته ... شريفا بنفسه وبسلفه ... ولي احكام الشرطة ثم ولى الوزارة .. وتوفى رحمه الله في انسلاخ ذي القعدة سنة 352) ولكن الناقد حين كان همه الملاحظة علينا بأي صفة، كان يبحث ويتعب فلما جاء للاستدراك تغافل عن كل ما يجب من التحري والتثبت والغى النصوص الصريحة في عدم اندلسية هذا الشريف ليتساءل عن عدم عده في امراء الادارسة الشعراء، بينما كان يؤول نصوصا اخرى تدل على مغربية الامير ابراهيم بن ادريس ليجعله غير مغربي ويلاحظ علينا في ذكره.



5

ويخلص الناقد الى الفصل الثاني المتعلــق بامرا٠ دولتي زناتة ولمتونة فيثير عاصفة في فنجان ـ كما يقولـون ـ من اجل كلمة، وهي كلمة حق لا غبار عليها، وذلك اننا قلنا ان التاريخ لم يحفظ اثرا شعريا من نظم امراء الدولتين لغلبة العجمة عليهم ولعدم استقرار الاحوال في ايامهم حتى يتثقفوا او يتأدبوا فينكر هو هذه العجمة، ومع انها راجعة لامراء الدولتين معا فانه يلصقها باللمتونيين فقط ويقول كان الاولى ان نعلل عدم قولهم الشعر بالصبغة الدينية التي كانت تغلب على دولتهم

فيا لله! ننكر ان تكون في القوم عجمة ـ وهم بربر ـ ونلصق بالدين تهمة من اعظم التهم وهو تنافيه مع قول الشعر! كان الشعر لم ينشأ في بحبوحة الدين ولم يكن الصحابة والسلف الصالح يقولون الشعر وهم اشد الناس تدينا

ثم يذهب الناقد ليقيم الدليل على عكس ما قلنا فلا ياتي بشيء، يقول انه سيتخطى بالذكر اللمتونيين الى اللمتونيات فلم يتخطاهم؟ الجواب واضح وهو انه لم يجد بينهم من قال شعرا او أنتج إدبا، فاذا اتى الى اللمتونيات ذكر فتيات كن يروين شعرا ويحفظن ادبا، اريها السهى وتريني القمر!.. ان الخروج عن الموضوع يوذن بالافحام كما يقول علماء الجدل ونحن ايها الاستاذ في صدد من قال شعرا من نظمه من اللمتونيين لا من حفظ شعرا او روى ادبا.

ويسبح الناقد في بحر الـكلام عن يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد وما حمل به خصوم المغرب واعـداء الاسلام على يوسف وما شوهوا من سمعة اللمتونيين وطعن مؤلفي كتاب المطرب في ادب المغرب وذلك موضوع فرغنا منه قبل بضعة عشر عاما فما احسن ما تقوله العرب في الصدى «صمى ابنة الجبل مهما يقل تقل»

وتطرق الناقد في الفصل الثالث للكلام من جديد على الاحاطة والشمول فاستدرك ابياتا للمهدي بن تومرت نقلها عن الصفدي والعجب كل العجب منه كيف ابعد النجعة وترك ابياتا له في القرطاس بجنب الابيات التي ذكرناها له، فما دام همه هولا نحن الجمع والاستيعاب فلماذا تركها ولم يستدركها علينا؟

لكنا كما علم القارئ ما كان وكدنا قط في الكم بل في الكيف، وهذا من اوضح الادلة على ذلك فلينظر القرطاس كل احد، ليرى اننا اخذنا منه ثلاثة ابيات للمهـدي وتركنا بازائها ثلاثة ابيات اخرى له بـل مساجلة ربما تكون برمتها من نظمه، لم ننقلها لاننا لم نرد ان نكون كحاطب ليل لا سيما ونحن نقيم الحجة على المنكرين لادب المغرب.

وتورك الناقد على قولنا في الامير موسى بن عبد المومن «اذ كان مجهول الترجمة» فقال كيف ساغ لنا ان نقول (انه) مجهول الترجمة ونحن ننقل عن القرطـاس ولا نزيد عليـه والقرطاس قد طبع مرارا وذلك بالفاظ يلزمها كثير من الصقل

في معمل الذوق المهذب فلنتركها ولننظر في الموضوع.

ان حضرة الناقـد الذي لم يترك سلما الا توقله لاجل الملاحظة علينا بما رأى القارئ بطلانه، قد اتخذ وسيلـة اخري في هذه المرة لاجل الملاحظة وهي تبديل كلامنا بغيره فنص كلامنا هو هذا «اوردت هذه الحكاية لزيادة التعريف بكاتبها اذ كان مجهول الترجمة تقريبا» وهو يقول اننا قلنا انه كان مجهول الترجمة يعني ولم يبق مجهولها ومن ثم تأتى الملاحظة مع ان الفرق ظاهر بين اذ كان وانه كان. فالعبارة الاولى معناها حيث انه مجهول الترجمة والثانية معناهـا ما اراد ان ينسبه الينا ليلاحظ عليه وشرح ذلك يطول.

وما قاله عنا في هذا الصدد يصح ان نقوله عنه فيما ذكره هو عن الامير موسى بن محمد بن يوسف ابن عبد المومن المترجم في مخطوطة الاحاطة من كون ترجمته كأديب (كذا) شاعر مجهولة حقا، ولاكنا لا نتعلق بهذه السفاسف ونوافق الناقد من حيث لا يود هذه الموافقة على ان ترجمة هذا الامير الشاعر لا تزال مجهولة لحد الآن فان ما اثبته له في الاحاطة من نظم ليس بشعر عندنا ولا عند احد من اهل الفن الادبي وهو هاذان البيتان اللذان انشدهما لـه ابو المطرف بن عميرة يخاطب بهما ابا الحسن بن حريق ليحثـه على نظم الشعر في عروض الخبب:

خذ في الاشعـار على الخبب فقصورك عنه مـن العجب

هـذا وبنـوا الآداب قضوا بعلـو محلـك في الرتـب

ويلحق بهذه الترجمة ترجمة الامير منصور بن عمر بن عثمان بن يعقوب المريني التي نقلها الناقد عن مخطوطة الاحاطة بنصها وفصها ثم قال انها عزيزة المثال.

الله اكبر! ما لاحدكم يبصر القذاة في عين اخيه ولا يبصر الجذع المعترض في عينيه! لما نقلنا ابياتا عن القرطاس وكلمات مهد لها بها صار الناقد يتندر علينا بالاعتراف من بحر الغير وحين نقل هو ترجمته بحذافرها عن ابن الخطيب و (ناقور) الفاظه يصم الاذان، لم يكن يعترف من بحر الغير بل صار يمتن بها ويقول انها عزيزة المثال!

ثم اورد شعر هذا الامير وهو قوله يخاطب ابن قطبة:

سوف تنال المنى .وترقى مراقي العز والمعالي
فانت عندي بها حقيق يا حائز الفضل والكمال

وهذا النظم عند صاحب الاحاطة ثلاثة ابيات بزيادة بيت في الوسط وهو:

اذا حططنا بارض فاس وحكمت في العدا العوالي

فلا ادري لم حذفه الناقد وهو الحريص على الاحاطة والشمول؟..

واني لاعجب من امر هذا الرجل، وهو الاديب الحصيف كما يدعي كيف يرى ان هذه الانظام اشعار وكيف يريد منا ان نذكرها في معرض المباهاة بادب المغرب الرفيع وكيف لم يدرك اننا تخطيناها وامثالها عمدا لا لكوننا لم نجدها كتخطيه المتونيين للمتونيات لكونه لم يجد لهم (ولا لهن) اشعارا، بل

لاننا لم نرضها ولم نرها شعرا ولم نرو في المجموعة ما يشابهها من النظم العاري عن كل معنى شعري، والعرب بالباب، وقد رأي نقلنا عن مخطوطة الاحاطة في غير هذا الموضع من الكتاب لو امعن النظر، فكان يدري اننا غنينا عن هذا النظم التافه لا سيما وان هذين الفصلين فصل الموحدين وفصل المرينيين عامران في الجملة بالامراء الذين لهم شعر يستحق ان يطلق عليه هذا اللفظ ـ على اننا حتى لو لم يكن الامر كذلك لم نكن لنستكثر بما ليس تحته طائل ولا نتحلى بما يكون العطل خيرا منه ولو اتسع لنا المجال لبينا كيف حذفنا ذكر بعض الامراء وبعض « اشعارهم » من المجموعة وهم من غير هاتين الدولتين المنجبتين.

وقد سئمت من كثرة ذكرى للاختيار والانتخاب وان ذلك هو رائدي في هذه المجموعة لا الجمع والاستيعاب كما يريد الناقد، ولذلك فاني لاجل الاختصار، اقف القارئ على ما ذكره الناقد فقط من «اشعار» السلطان ابي العباس المريني المحذوفة عندي ليرى رأيه في هذه الذخائر الادبية التي اهملتها فاولا قوله:

ياعاذلي دع عنك عذل العاذل
واخلع عذارك في الحبيب الواصل
واذا ذكرت عشية بمحاسن
فاذكر عشايانا بدار العادل

فهذا « الشعر » فضلاً عن كونه مثل قول الاعشى :

شاوِمشل شلول شلشل شلل. وقول المتنبي

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل هم كلهن قلاقل

لا كبير معنى فيه بله الاضطراب الذي في اوله من مخاطبة العاذل بطرح عذل العاذل فهو يجعل الشخص الواحد شخصين وانت خبير بكراهية الادباء للجناس المتكلف اذا سلم من الايراد فكيف به مع هذا ؟..

ثانيا قوله « وهما البيتان اللذان قالهما في فاس وخاطب بهما كاتبه ابا الحسن بن الخطيب خلاف ما يعطيه صنيع الناقد من انهما نظمان لا نظم واحد:

يافاس اني وأيم الله ذو شغف بكل ربع به مغناه يسبيني

وقد شغفت بقرب منك يا أملي ونظرة فيكم بالانس تحييني

فليلاحظ القارئ الاديب هذا التفكك بين الصدر والعجز في البيت الاول وهذا « بكل ربع به مغناه » وهذا « ياأملي » التي تذكرنا « بياذكي » في قول ابن عاشر رحمه الله.

محال الكذب والمنهي كعدم التبليغ ياذكي

ثم ليقارن كل ذلك بالابيات الجميلة التي اوردناها له مقتصرين عليها :

اما الهوى ياصاحبي فالفته ... وعهدته من عهد ايام الصبا
ورايته قوت النفوس وحليها ... فتخذته دينا الي ومذهبا
ولبست دون الناس منه حلة ... كان الوفا لها طرازا مذهبا
لكن رأيت له الفراق منغصا ... لا مرحبا بفراقنا لا مرحبا

فبالله عليكم ايها القراء هل تجدون ادنى مناسبة بين هذه القطعة الوجدانية المشرقة وبين تلك التلفيقات التي ضربنا عنها صفحا ولم نشوه بها وجه ادبنا الأميري الوضاح ؟

ولعلي سأخالف ما التزمت فاذكر للقارئ شعر السلطان عبد العزيز بن ابي الحسن الذي اهملته في المجموعة ولاحظ الناقد على عدم ذكره ولكنه طواه فلم ينشره هو ايضا كانه شعر بما في تسميته شعرا من المجاز (المطلق) الذي ليست له علاقة!! وهو قوله مذيلا على بيتي والده المذكورين في المجموعة.

وارغب خالقي في العفو عني ... واطلب حلمه يوم الحساب
وارجو عونه في عز نصر ... على الاعداء محروس الجناب
وعبدك واقف بالباب فارحم ... عبيدا خائفا الم العقاب

فليلاحظ القارئ الاديب هذا الاستعمال العامي لارغب في قوله «وارغب خالقي» ثم ليقل لي هل هذا ختم لدلائل الخيرات او هو شعر طاعوني من ديوان القائل:

الله حي صمد وباق ... سبحانه ذو كنف وواق
يا رب نجنا من الوباء ... الطعن والطاعون والبلاء

وما اشبه هذا الذيل بالذيل الذي نحن بصدده!

وقد اثقلنا هذا الجو الشعري الخانق فصرنا ندلف الى هذه الامثولات وكانا نجر انفسنا جرا فلتتدرع يا قارئي العزيز بالصبر فانا على وشك اراحتك من هذه الهيضة قال الناقد، «المعروف ان للسلطان ابي عنان مقطوعات غزلية متناثرة في مختلف المصادر ولكن صاحب الكتاب لا ينفح الا بالنزر اليسير، وبذلك حرم قارئه من خمس نتف ضرب فيها ابو عنان على هذا الوتر حين يقول:

الف الفراق فؤاديــــا فغدا اشتياقي ناميــــا

واطال لهف تشوقــــي فبدا اصطباري نائيــــا

وتوقدت نار الحشــــا فطلقت دمعي هاميــــا.

بالله يا عرب النقــــا ردوا علي سلاميــــا

فاما قوله ان هذه المقطوعات متناثرة في مختلف المصادر فليس بصحيح بل هي مجموعة في الجذوة عند ابن القاضي في صحيفة واحدة أخذ بعضها برقاب بعض وذلك ايضا من اصدق البراهين على اننا نتخير من اقوال هؤلاء الامراء وناخذ ونرد لا ان ما لم نثبته فاتنا ولم نطلع عليه حتى يستدركه علينا واما كوني حرمت القارئ من هذه النتف الخمس فلا يصح الا اذا كنت استهين بذوق القارئ واتهم ادبه وحاش لله فان قارئي

عزيز علي، وقد ازحت عنه ثقلا حين لم أر وله هذا «طلقت دمعي» وبقية هذه المقطوعات الخمس التي منها ايضا.

يا عاذلي في غرام دعني وطول الملام

دع مستهاما كئيبا جفاه طيب المنام

وجسمه قد تمادى عليه فرط السقام

وحبه «لن يحول» مخلدا «للقيام»

فكيف يرى قارئي هذا «دعنى وطول الملام» هو ينهاه عن الملام، ويقول دعني واياه وكيف يري هذا «لن يحول» في حكم العروض، وكيف يرى هذا «مخلدا للقيام» في حكم الصناعة الادبية؟ ثم الا يعذرني في تغميض عيني عن هذه النتف الخمس وصرف اذني عن هذا «الوتر» الذي ضرب عليه ابو عنان مكتفيا بما هو حقيق ان يعد شعراً من نظمه؟ بلى! فاني لا اكتمك ايها القاريء ان في نفسي شيئا من احدى القطع التي اثبتها له في المجموعة وكم فكرت وقدرت حين الجمع والتاليف ولو استقبلت من امري ما استدبرت لجعلتها نتفا ستا وزيد في شطرنج الاستدراك بغل!.

وهنا ينتهي الناقد ويلمح الى التقصير في ادب السعديين والعلويين والى مصادر الادب المغربي والكلام في ذلك طويل

مريض فلنتركه الى سنوح فرصته ثم يقول انه لم يهدف بهذا الذيل الى تنقيص او تهجين (اطرق كرا).

كل امرئ حسن في عين والده

والخنفساء تسمي ابنها القمرا

وقد رأى القارئ ان هذا الذيل اشبه ما يكون بذنب العصفور يمسك به الصبي فيفلت العصفور من يده ويطير محلقا في الاجواء مخلفا الذنب في يد الصبي!..



الى صديقنا عبد الرحمن الفاسي

إن كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا

ذكر ابن الخطيب ان القاضي ابا الحسن النباهي المدعو بجعسوس كان مثلا في الغفلة والغباوة وكان يكثر في كلامه من ذكر هذه الكلمة جعسوس (والجعسوس في اللغة القصير الدميم) فذات مرة قال لبعض عدوله: تنكرون ما يتردد في كلامي من لفظ جعسوس كأنه ليس من كلام العرب بل من الفاظ القرآن! فقالوا له أما في كلام العرب فربما واما في القرآن فلا نعرفه. فضحك وقال: سبحان الله اعيدوا النظر! فقالوا والله ما نعرفه، فقال الم يقل ولاتجعسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا؟!. فقالوا والله ما قال الله ذلك قط، وانما قال ولا تجسسوا قال فاسترجع وقال حفظ الصغر!،.

ونحن نترحم على روح هذا القاضي المسكين ونرثي لكل شخص مثله يريد ان يرتفع فيقع ويحاول ان يستشهد لاصابته فيشهد الناس على خطله.

هذا حضرة الناقد لما الزمناه بان شروط دراسة شعر هؤلاء الامراء غير متوفرة، صار يقول انه لم يرد الدراسة وانما اراد العرض الادبي المنهاجي، ثم اتى بنص كلامه ليستشهد على ما نفاه

وهو قوله: «ولعل في حياة الامراء السادة امراء الدولة الموحدية ما يهدي الباحث الى مكامن هذه الشاعرية، واخلق بحياة اصطلح على تاليف عناصرها الادب والغرام والفروسية والمدام ان تكون حرية (بالدرس والتحليل) في هذا المقام».

فاسمعوا وعوا ايها الناس! لقد تبرع الاستاذ بعد الدرس بالتحليل وهو ينكر ان يكون قال شيئا من ذلك؟

هذه مسألة!

ومسألة اخرى، لاحظنا على الناقد وثوبه من امراء ما قبل الدولة الموحدية اليهم وتخصيصهم بامكان دراسة آثارهم الشعرية في قوله «ولعل في حياة الامراء السادة امراء الدولة الموحدية ما يهدي الباحث الى مكامن هذه الشاعرية..» وقلنا في هذه الملاحظة «كان الكاتب مقتنع في سريرته بان حياة امراء غير هذه الدولة ليس فيها ما يهدي الى اسرار هذه الشاعرية» فعقب على هذا بقوله انه مقتنع سرا وعلانية بانه غاب عنا قولهم (المثال لا يخصص).

ونحن نقول انه قد جهل جهلا مطبقا ما يعرفه صغار الولدان من معنى لعل وانها ليست للتمثيل وانما هي للترجي والتوقع وفي اصطلاح قوم للطمع والاشفاق فحضرته حين قال ولعل في حياة الامراء الموحدين ما يهدي الى مكامن الشاعرية كان يرجو ويطمع انه اذا بحث تلك الآثار ودرسها دون غيرها ربما

يجد فيها ما يهديه الى اسرار شاعريته ولم يكن يمثل، وما اراد المثال، وهو لو اراده جهلا يكون قد استعمل حرفا (جاء لمعنى) فيما لم يجيء له فعليه ان يتعرف لدنيا النحاة ولا يعود لتمثيل هذه المهزلة «الجعسوسية»!..

هاتان مسالتان تتعلقان بصلب الموضوع. وبقي سباب ومهاترة سوف لا نقابلهما بمثلهما ولكن لابد من التعليق عليهما بما يستحقان:

فالناقد لغروره واعجابه بنفسه كان يظن ان لاغاية بعد ما كتبه وأنا سوف لا نرفع رأسا بالرد عليه وتصحيح اغلاطه، فلما خاب ظنه صار يرغي ويزبد ويجري على لسانه ما لا يقصد قائلا انه كان يكفي عن الرد عليه ان نقول ان ذلك سبق لسان وهما كلمتان خفيفتان! فيا للاكتشاف العظيم! ويا للنظرية العلمية الجديدة!

ايها الكتاب في جميع اقطار العالم! ايها النقاد في سائر اطراف الدنيا! لقد فاتكم من العلم بقدر ما ضاع من عمركم في تسويد القراطيس، انه لا يجب بعد اليوم اولا يجوز «لانا لا نعرف حكم ذلك عند حضرة الناقد» أن تراجعوا الناس في آرائهم او تردوا المخطئين الى صوابهم وانما يكفيكم ان تقولوا سبق لسان! وهما كلمتان خفيفتان! فاقبعوا في دوركم! وناموا ملء جفونكم، وحطموا اقلامكم، وطلقوا حياة الكتابة طلاقا باتا،

واذا عرض ما يقتضي منكم نظرا او مراجعة فقولوا سبق لسان! وهما كلمتان خفيفتان.

وعفوا ايها الناقد الكريم والمكتشف العظيم! فقد جاوزت الحد واسأت الادب بالرد عليك ومراجعة ما كتبت فما كنت احسب انك المعنى بقول حسان:

اذ قال لم يترك مقالا لقائل
بملتقطات لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع
لذي ارب في القول جدا ولا هزلا

وان المتنبي قصدك بما قال:

من مبلغ الاعراب اني بعدها
جالست رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه
متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما
رد الالاه نفوسهم والاعصرا

وان العرب فيك وضعت المثال «كل الصيد في جوف الفرا» وان الحسن بن هانيء كان ينظر الى الغيب من ستر رقيق حين وصفك بقوله:

ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

وجعلوا صفرا علامة الخلا وهو مدور كحلقة جلا

وتندر حضرة الناقد الفاضل بكتيب امراؤنا الشعراء قائلا انا دعوناه كتابا وربما ندعوه سفرا ولكن الامر بالعكس فاننا لا ندعوه سفرا ولا كتابا بل ولا كتيبا ولنحسبه ورقة فقط وانما حسبه انه اكل اكبادا واطار عن بعض الاجفان رقادا:

والنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

وقد تعرضت في القسم الاول من الرد الى شرح طريقة الكتاب الذين عنوا بدراسة آثار الادباء وكيف ان بعض المقلدة الذين يهرفون بما لا يعرفون يأخذون تلك الاقوال ويحاولون تطبيقها في غير موضوع وصرحت باني قرأت شيئا من ذلك لبعضهم وانهم يكثرون من الالفاظ الطنانة التي لا طائل تحتها بينما هم يعرضون بيتا او بيتين لاديب او شاعر لا يعرف له غير ذلك، فظن الناقد ان الكلام موجه له، وصار يتعب نفسه في استعراض كلامه ويتساءل اين توجد تلك الالفاظ فيه، وهذا دليل على العجلة وعدم التروي وسوء النية، فهل كان لزاما علي ان استعمل الفاظه ولا اخرج عنها حتى في شرح الطريقة التي اراد ان يلزمني بها وانا ارى لا محل لها، اما كان يكفيه اني اشرت الى ان بعضهم حاول تطبيق ذلك بالفعل «لا اقترحه» وانه خرج منه بغير نتيجة بل بنتيجة تبعث

على السخرية والاستهزاء وهكذا مر الناقد يتدحرج مع هذا الفهم المقلوب فانا اقول ان شعر الامراء ولا سيما المغاربة قليل ومن اكثر منهم فاكثاره نسبي ثم ان طبقته ونسبة بعضه فيهما مقال فيقول هو اذا كان كذلك فلماذا قلت فيه انه خصب ولماذا بينت ما هو منسوب لبعض الامراء ولم تبين البعض الاخر، فليفرخ روعك يا استاذ! ان الكلام يفسر بعضه بعضا والاشارة لاقرب مذكور كما تقرر في محله، وكان علينا ان نبين هذا لغير من يدعي ما يدعي:

فشعر الامراء قليل لا تتوفر فيه شروط الدراسة التي تريد والمكثر منهم انما يعد مكثرا بالنسبة لغيره من الامراء لا بالنسبة لغيره من الشعراء، وهذا كالامير سليمان الموحدي وديوانه كراستان ثم ان طبقته ليست الطبقة التي لا يعلى عليها ويكفيك قول ابن سعيد المغربي عنه في كتاب الرايات «ديوان شعره مشهور، ولم اجد فيه ما يشفع له في هذا المجموع غير قوله» الابيات التي قالها لما هجره المنصور، وقول ابن سعيد هذا يفسر لنا تهافت المؤرخين على نقل تلك الابيات وانا انما اوردت كلامه ليلا ادلي برأيي الذي لا يقبله الناقد.

ومع هذا وذاك فلا يخفاك ايها الناقد ما في نسبة ذلك الشعر الى الامير سليمان من مقال وكلام صاحب المعجب في هذا الصدد، فأين ذهب بك عن هذا كله وجعلت تقول لم بينت هذا ولم تبين ذاك؟ والخصب الذي لم تنسه كما لم

نتسن نحن (الدراسة)، راجع الى ادب الامراء في جملته لا في تفصيله والى انتاجهم جميعا لا الى انتاج واحد بعينيه!..

وبعد فاليك يساق الحديث. يا ناقدي العزيز فما رجـوته وطمعت فيه من امكان دراسة شعر الامراء الموحديـن دراسة فنية هو الذي يرد عليه هـذا ونحن لم نجابهـك به رعيا لادب النقد وادارة الكلام على وجه ليس فيه مس بعواطف الشخص!

وقال الناقد اننا (نتسامى) للملاحظة عليه وكرر ذلـك فشعرنا ان في العبارة تحريفا وان صوابها اننا تنزلنا للملاحظة عليه وتواضعنا لله بتصحيح غلطه كما تواضع له رافع بن جبير بالجلوس في حلقة الخرقى؟

ثم تعلق بقولنا اننا نلقن الناس مـواضـع العبـر والفخار من تاريخهم فقال ان هذا موقف الواعـظ المذكر لا الاديب المؤرخ، ولا ادري اذا كان في الدنيا عقل (غير عقل الاستـاذ بالطبع) فاحرى قانون يمنع ان يكون المؤرخ الاديب واعظا او مذكرا، وهل التاريخ كله الا وعظ وتذكير.

وهل قص القرآن العظيم اخبار الانبياء والامم الماضية الا ليتعظ بها الناس ويتذكروا والذكرى تنفع المومنين.

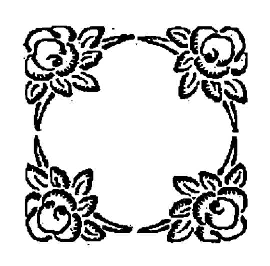
الا ان الامر واضح فالاستـاذ يريد منا ان نتحدث عن حياة الغرام والمدام التي كان يحياها هؤلاء الامراء ونحن مـع ما اسلفنا من اعواز مادة ذلك الحديث، نعترف له بكل صراحة اننا لا نحسن ذلك، واذا احسناه فنحن لا نحب ان نحدث

الناس به، ونفضل ان نعظ ونذكر ونخلى هذا الجانب الخصب من الادب للناقد فليجل في جولاته البهلوانية فما اولاها به:

انا اقتسمنا خطتينا بيننا...

واخيرا يغلى الدم في رأس الناقد ويغتاظ، والغيظ من الشيطان فيبرق ويرعد ويهدد ويوعد ونحن لترويحه وتسليته نحكي له هذه الحكاية التي ضربت مثلا في شبه هذا الموقف:

زعموا ان فأرة وقعت في دن خمر فشربت فسكرت فقالت: اين القطط..؟ فلاح لها هر فقالت لا تواخد السكارى بما يقولون!..



2

يظهر ان حضرة الناقد غضب علينا فسلب عنا وصف الصداقة الذي كان اول من خلعه علينا ورحبنا به لان صداقته مما يرغب فيه، فلا ندري ماذا جنينا عليه الان حتى كتب (الى الاستاذ) ولم يكتب (الى صديقنا)؟ اهو جوابنا له وفيه من العناية به والاكبار من شأنه وتعظيم قدره والتنويه بعلمه ما فيه؟ ام هو وصفنا له بالناقد ـ وبينه وبين النقديون ـ اجتزاء عن كثرة وصفه بصاحب الذيل لان هذين المتضايفين يذكراننا بالحلقة المفقودة للربط بين الانسان والقرد في مذهب داروين؟ ام انه بعد ان فكر وقدر، وعبس وبسر، وادبر واستكبر لم يرنا أهلا لهذه الصداقة فعاد يستردها منا ظانا ان الأمر من السهولة بهذا المكان؟

كلا! ثم كلا! فنحن متمسكون بهذه الصداقة، واضعون اليد على قذالها، لا نتركها تلعب ادوارها البهلوانية دون ان نقول لها حين تتدحرج او تترجرج: هس! هس! عدس! عدس! وذلك من الغيرة عليها والضنانة بها فانها علق نفيس لا يتسامح فيه

وماذا يقول (صديقنا بالرغم عنه) في هذه المرة؟

انه بعد ان استعرض كلامنا في المصادر وطرق ذكرها عند المؤلفين قديما وحديثا لم يجد ما يتعلق به الا ما ألمعنا

اليه من حماية المؤلفين لجهودهم من الادعاء والسطو، فيزج بنفسه في موضوع هو ابعد الناس عنه لانه يحسب كل صيحة عليه، ويتبجح بمصادره التي نعرف انها كثيرة ولاكن في خزانة (المكتبة المغربية العامة)!

والمعجب في هذا الحديث هو هذه الارابة من الاستاذ فنحن اذا قلنا ان بعض الكاتبين حاول ان يطبق طريقة الدراسة الادبية على بعض الشعراء الذين لم يرو لهم الا البيت والبيتان، ظن انه المعنى بذلك وجعل يتنصل ويتبرأ ويقول انه لم يفعل ولم يحاول! واذا قلنا ان بعض المؤلفين يفضلون طريقة ذكر المصادر مجملة في أوائل او أواخر كتبهم حماية لاتعابهم من الاستراق والاستلاب توهم اننا نعرض به فصار يخبط خبط عشواء متلمسا لموقع الحجة بالدعوي او السفسطة على انه لا يستلب ولا يسترق... وكاد المريب ان يقول خذوني!..

ثم يرجع الينا فيصحح كلامه في الذيل والتعليق الذي كان يقول فيه اننا لا نذكر المصادر وان كتابنا خال منها؛ وذلك بحصر الدعوي في عدم ذكرنا للمقري وابن القاضي فقط.!

فما عدا مما بدا؟...

لقد صار الناقد يتراجع عن غلوائه ويرى اننا لم نذكر المقري وابن القاضي فقط ولربما بعد حين يرى انه لا موجب لذكر هذين ايضا؛ لان اثارة مسألة المصادر من اول يوم انما كانت كالنسيئ زيادة في الكفر!

ولكن بربك ايها القاريء اي مناسبة بين اهتضام آثار المؤلفين وآرائهم وعدم نسبتها اليهم، وهو موضوع الحديث كان - وبين ذكر قول مشهور او خبر مأثور مع نسبتهما لصاحبيها وهما التاج ابن حموية وابن سعيد المغربي وأن لم تذكر وساطة المقري في ذلك؟... اهذا من باب ما كنا فيه ؟

اليس قد نسب الخبر لصاحبه والقول لقائله ولا علينا فيمن ذكره لان المطلوب هو امانة النقل وعدم تحريف النص؟ الا يستعمل المقري نفسه ذلك مع ابن الخطيب وغير ابن الخطيب حتى لينقل مسودة كاملة ولا ينص على موضعها من كتبه وابن القاضي ؟ الم يكد يكون نقلا مجردا عن كتب الاخرين بدون تسمية ولا نسبة فاحرى النص ينقله بواسطة غيره؟.

هذه هي طريقتهم ياصديقي عبد الرحمن في الكتب الاصول والموسوعات الكبرى فما بالك بكتاب استغفر الله، بل بورقة امراؤنا الشعراء ؟

« والنبوغ » من الذي زج به في هذا المبحث غير حضرتك؟ الم تقل انه كذلك خال من ذكر المصادر - كما تريد - وان هذه شنشنة اخزم ؟ فاضطررنا لان نقول لك ان النبوغ مصادره فيه، ذكر بعضها عند الاقتضاء استطراداً على طريقة القوم ثم ذكرت جميعها باخره وان مالمزته به من النقل مباشرة عن كتب غير موجودة هو من عدم التحرير وقلة الانصاف والافمن المعلوم ان الحاكم على مافي الكتاب

هي المصادر المذكورة باخره على انها مراجعه ومواده فحيث لم يذكر الكتاب المفقود مع تلك المصادر عُرف ان النقل عنه بواسطة لامباشرة، والمهم كما قلنا آنفا هو التثبت والتحري وليس على المؤلف حتما ان يذكر من اين استمد معلوماته ولكن الذي عليه ان يحقق هذه المعلومات فاذا زاد وذكر استمداده كما فعلنا فذلكم الكمال!

هذا وجه القضية وعرض حال المسالة لا اننا ذكرنا النبوغ لنحيل عليه في مصادر (امراؤنا الشعراء) كما لم يتورع ان يدعى ذلك حضرة الناقد...

وتاتي شهادة المستشرق بروكلمان في هذا السياق حيث انه اعرف الناس بمسالة ذكر المصادر وترتيبها وتفصيلها وتبيينها، وان شاء الناقد فليقل لا، وهى شهادة لها من القيمة بقدر ما حط حضرته منها على حد ذم الثعلب للعنب في قول الشاعر:

ايها الغائب سلمى انت عندي كثعاله
رام عنقودا فلما ابصر العنقود طاله
قال هذا حامض لما رأى ان لاينالـه

وعندك ما يقوم مقام شهادة من ذكرت من الاعلام فاقرأ الفصول الغامرة التي كتبها امير البيان المرحوم مقدمة للطبعة الثانية من هذا الكتاب حين تصدر بحول الله او ابعث لي اولئك الاعلام من

مرقدهم أتك بشهادتهم فانهم رحمهم الله كانوا مثال التواضع والانصاف في غزارة علمهم وسعة نظرهم؛

واما الاعتداد بشهادة هذا الاجنبي وانه ليس من هدى الاسلاف، فمن قال ان الاسلاف لا يعتدون بشهادة الاجانب؟

هل كان الاسلاف من التعصب وقلة النظر بالمكانة التي يجعلهم فيها حضرة الناقد فلا يقبلوا كلام الاجانب وهم المتواصون بطلب العلم ولو بالصين واخذ الحكمة التي هي ضالة المومن من اي وعاء خرجت.

وهل الذين اطلعوا الاسلاف على دنيا العلوم وفتحوا لهم ابواب المعارف الا اجانب كانوا يلقون من اولئك الاسلاف كل عناية وتقدير؟

هذه مناورة مفضوحة!..

ولكن كل هذا لايهم، وانما المهم ان الاستاذ ضحك في هذا المقال، بعد طول العبوس واستصحاب الجهامة منذ ابتداء هذه المناقشة، وما كان الامر ليقتضيه كل هذا الجد بل الغيظ، فما زال الناس يؤلفون، والنقاد (حقيقة) ينتقدون، والمنتقدون يردون على النقاد (فاما الزبد فيذهب جفاء؛ واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض).

ضحك الاستاذ فيا بشرى!

اضحك الله سن من اضحكه! وان قال انه ضحك مقرون بالبكاء؛ فلا باس. انه كقول العامة «ضحك مارس وتسلى ابريل»!

بلى! انه ضحك الجوزة تحت الحجر. فياما اغربه من ضحك؟!.

3

كان بآخر المقال السابق (تقرير) على (حاشية) الناقد واهمل ـ ربما لضيق نطاق الجريدة ـ وحيث ان الحاشية اشتملت على ثلاث نقط مهمة لا يمكن السكوت عليها فانا نعيده هنا اكتفاء به ولو توفرنا للرد عليها لطال الكلام وخرجنا عن الموضوع، وهذا نص التقرير:

رجع الاستاذ الى القول بان لعل للترجي لا للتمثيل والرجوع الى الحق فضيلة! واعترف بان الذي يمكن ان يدرس هو اخبار حياة هؤلاء الامراء ـ ان وجدت ـ لا اشعارهم وهذا انصاف كبير! .. وقال اننا أغرنا على رسالة التربيع والتدوير، وغلط في الاسم فانا اغرنا على رسالة «التقصير والتكوير» والغلط يرجع من التليس!

اما مسألة الكلام المشوش فاننا فكرنا فيها وهممنا بان نرجو من حضرته ان ينوب عنا في تصحيح تجارب الطبع لوجوده هناك بقرب المطبعة لاكنا رأينا كلامه اكثر تشويشا فيئسنا ...

ونرجع الى ما نحن في صدده وهو مقال حضرة الناقد في مسألة العزفيين الذي نحت فيه اثلته ونفض كنانته وابرز مكنون علمه ـ كما كان وعد ـ فاذا به يرجع الى القول القديم وهو ان العزفيين كان يجب ان يذكروا ضمن امراء المغرب الشعراء «ولا شأن لما يكون هنالك من اعتبارات»

هكذا بهذه العبارة التي لا تصدر ولو من فقيه مهوس امام تلامذة مغفلين!

وزعم ان المؤرخين وكتاب التراجم وصفوهم بالامراء والسلاطين فطالبناه بالدليل ومن هو هذا المؤرخ او المترجم الذي وصفهم بذلك فبلعها وصار يغالط بانا اثبتنا لهم ذلك في الكلمة التي نقلها عنا.

الله أكبر! بعد ان كنا لا نذكر المصادر في كتبنا ـ كما زعم الاستاذ ـ صرنا الآن مصادر يعتمد عليها ويكتفى بها في الاستشهاد .. !

بعض هذه المراوغة يااستاذ! ان ما اثبتناه نحن هو وصف المؤرخين وكتاب التراجم لهم بالرياسة وبعضهم وصف واحدا منهم فقط عرضا بالامير والباقون وان ذكروهم في عداد الامراء تارة وفي عداد الفقهاء تارة اخرى لا يصفونهم الابالرؤساء ويتجنبون وصفهم بالامراء والسلاطين وهم ان ذكروا حسن امرتهم وعدل سلطانهم فانما ذلك على سبيل التعظيم لرياستهم والتنويه بشأنهم فأين قولك انهم وصفوهم بالامراء والسلاطين؟..

يقولون اقوالا ولا يعلمونها   فان قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

وقلنا ان القوم كانوا ولاة مدينة وهي سبتة ولا يصح بحال ان يعدوا في امراء المغرب لذلك فصار يغالط ويقول ان الفقيه ابا القاسم العزفي استولى على طنجة واصيلا ردحا من الزمن وللقارئ الذي لا يكون على خبرة من الامر نقول ان

هذا الرئيس تولى طنجة فعلا ولكن عاما واحدا فقط، وفي أيام الفتنة ومعنى توليته لها أن رئيسها او اميرها على اصطلاح ناقدنا دخل في طاعته ثم بدا له فاستقل بنفسه.

واما اصيلا فانما ارسل اليها في ايام الفتنة فهدم اسوارها خوفا من نزول النصارى فيها فهذه هي توليته لها.

وفائدة الخبر في هذا الامر ان الرجل حاول ان يخرج من حلقة الولاية او الرياسة الضيقة الى دائرة الامارة والسلطان الواسعة فلم يقدر له. ولو جئنا نعد كل ثائر وكل محاول لتأسيس دولة اميراً وسلطانا لكان عدد هؤلاء اكثر من عدد الامراء والملوك الشرعيين.

وقلنا ان هذا الرئيس أبا القاسم لم يلبث ان ساقه المرينيون بعصاهم ودخل في طاعتهم هو واولاده فكيف يعد اميرا الى جنبهم او الى جنب غيرهم من امراء المغرب فقال ان ابا زكرياء منهم قد استقل كسلفه بسبتة فياعجبا كم يتعلق حضرته بالخيوط العنكبوتية ليصحح نظرا خاطئا ويبطل حقا واضحا؟..

والواقع ان ابا زكرياء هذا حاول الاستقلال فقاده ذلك الى العزل والوقوع في الأغلال وذهبت بذلك ريح قومه وامحت رياستهم وما عهدنا الامارة المستقلة تكون هكذا...

والغريب من امر الاستاذ الذي كان حريصا على الاحاطة والشمول واخذنا بها وبنى كل نقده تقريبا على اساسها اننا

لما تبرأنا منها وقلنا معاذ الله أن ندعي شيئا من ذلك، صار يتبرأ هو منها ايضا ويقول ان الاحاطة الشاملة لا تكون الا لله عز وجل وان علمه تعالى هو الذي لا يغيب عنه شيء فيا سبحان الله! كيف يسرق احدكم دجاج جيرانه وياتي بالريش على رأسه وهو ينكر ذلك؟..

لم تقع كلمة الاحاطة والشمول في كتاب امراؤنا الشعراء اصلا ولا ما يرادفها في معناها والناقد نفسه لما اراد ان يلصق هذه التهمة بالكتاب صار يقلب كل حجرة ويفتح كل باب فلم يجد ما يتمسك به الا وهما وتمحلا. ومع ذلك فان هذه المجموعة قد احاطت بكل ما هو معروف لحد الان من شعر الامراء المغاربة الذي يمكن ان يقال عليه انه شعر وما تركت الا النفايات والانظام الركيكة التي لا نسبة بينها وبين الشعر مطلقا كما رأى القارىء ذلك في سلسلة الرد الاولى.

وفي نقد الاستاذ الفاسي كاد الكلام كله ان يكون مبنيا على هذه الفكرة وهو الذي اتى بكلمة الاحاطة والشمول وما سمى نقده ذيلا وتعليقا الا لايهامه انه سيحيط بالموضوع من جميع جهاته ويشمل كل متعلقاته فلما اظهرنا له انه لم يحط ولم يشمل شيئا وانه اول من يتوجه عليه هذا المأخذ جعل يتنصل ويسند العلم الى الله ويقول ان الاحاطة بمعناها الحقيقي لا تكون الا لله. وهذا من باب السماء فوقنا فنحن لم نطالبك بما فوق طاقة البشر وانما طالبناك بان تسير على نهجك الذي

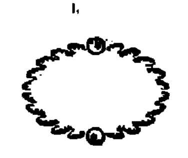
رسمته بنفسك وتذكر كل من كان كالعزفيين تولى شيئا من الامر وقال الشعر وتستدركه علينا وذلك كالدلائيين ولوقاش. لان هؤلاء بحسب شرطك ياتون اولا وقبل العزفيين لانهم ملكوا اقليما لم يملكه العزفيون. واما لوقاش فقد ملك مدينة مثل سبتة وهي تطوان وقال الشعر وادعى الخلافة بل ما هو اعظم منها، فكيف غفلت عنه وعنهم ولم تثب اليهم بذيلك او يثبوا اليك!...

والفضيحة كل الفضيحة؛ يقول الصوفية؛ هي التسبيح والتنفيحة ونقول نحن هي ما وقع للاستاذ من المكابرة في هذا المقام فانه لما توجه عليه هذا المأخذ ولزمه الحق في عدم ذكره للدلائيين ومن تبعهم انبرى يقول انه لم يذكرهم لانه لم يتكلم على دولة الاشراف العلويين يعني وهؤلاء معاصرون لهم كانه تكلم على العزفيين في اثناء الكلام على دولة بني مرين المعاصرة لهم ! ..

فعلى من يدلس الاستاذ؟ علينا أم على القراء؟ .. أما علم اننا ان نسينا ذكره للعزفيين في اول مقال واستدراكه لهم علينا في طالعة الذيل والتعليق قبل ان يتناول الكلام على اية دولة، فان من بين القراء من لا ينسى قطعا ؟ .. اما علم ان الجريدة بيد كل احد وان الناس ان لم يحتفظوا بها لمقالاته النفيسة فعلى الاقل يحتفظون بها لانها سجل تاريخي للحركة الوطنية في فترة من الزمن؟ ..

الواقع ان الناقد اثار مسألة الاحاطة والشمول واستدرك

الرؤساء العزفيين في الكلمة الاولى من ذيله وتعليقه قبل ان يتعرض لفصول الكتاب ويتتبع شعر الامراء من كل دولة فلو كان خطر الدلائيون له ببال لذكرهم اولا مع العزفيين ولصال وجال في كل مجال من شنيع المقال، لكنه لما فاته تحقيق هذا المقام صار يتعلل بالاوهام ويمخرق بكلام النيام. وقد كانت الكلمتان الخفيفتان على اللسان الثقيلتان في الميزان الحبيبتان الي « عبد الرحمن » اولى به هنا، فان لم تطاوعه نفسه عليهما وهما لا يزيدان فينا ولا ينقصان منه، فليضرب عن المسالة صفحا وليعترف اعترافا سكوتيا بما لزمه فيها من الخطأ ولان يكون ذنبا في الحق خير من ان يكون راسا في الباطل.



4

اصبح من خواص الاستاذ عبد الرحمن الفاسي الحيرة والاضطراب فهو يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء، لا يعرف ما يكتب ولا اى طريق ينهج، فقد سجلنا انه دعانا بصديقه ثم نزع منا هذا الوصف، وقد كان يحلينا بالاستاذ فصار يدعونا بالاسم المجرد ظنا منه ان ذلك ينقص من قدرنا شيئا، وقد كان يعنون مقالاته (بلبيك لبيك) فكأنه شعر بما في ذلك العنوان من برودة وضعف فغيره ولما يتنه من رده بعد.

واصبح من خواص الاستاذ ايضا الخروج عن الموضوع فقد كان من حقه اذا اراد الرد علينا حقيقة ان يقول ان هذه المقطوعات التي استدركها علينا بزعمه صالحة او غير صالحة وانها مما يفتخر به الادب المغربي اولا وخصوصا بعد ان زيفناها تزييفا ولا يغض الطرف ويمر مر الكرام فيخوض في شؤون اخرى ويستطرد ذكر النبوغ من جديد ويقول متى عهدنا نختار ونفرق بين الشعر والنظم الى غير ذلك.

واذن فانت ياأستاذ تقر بان تلك القطع ليست من المختار ولا من الشعر في شيء وانما هي نظم ونظم مختل ركيك لا قيمة له من الناحية الادبية مطلقا فاحري ان يكون مما يفتخر به المفتخرون . . ولذلك تركه صديقك القديم ولم يشوه به مجموعة امراؤنا الشعراء.

واصبح من خواص الاستاذ كذلك ـ ويالالاسف ـ اذا اعوزته

الحجة والدليل والبرهان -وهي دائماتعوزه- ان يستعيض بالسب والشتم والقذع مما يدل على خلق نبيل وتربية عاليـة ونشأة صالحة وسيرة حميدة. ونحن اذا فكرنا في هدايته من حيرتـه ورده الى صوابه والجواب عما يقع له من خلط وخبط فاننا لا نفكر ابدا في رد هذه الشتائم عليه ما دام عندنا ما نقول وما دامت الحجة لا تعوزنا في شيء (وانما السب سلاح العاجز):

فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا   فاذهب فما بك والايام من عجب

ونورد اولا حكاية لطيفة، تناسب العنوان الجديد (ما احق الشوهاء ان تتقنع) الذى عوض به العنوان السابق:

ذكروا ان البومة قالت لاولادها ان لنا وجوها صباحا تعشي اعين الناظرين فلذلك لا نظهر بالنهار. فلما جاء الليل وكـان القمر باسطـا رداءه الفضي على الارض نظـر الاولاد وجوههم في بركة ماء فرعبوا فقالوا لامهم اين الوجـوه الصباح التي ذكرت فقالت لهم وهي آسفة ان حسننـا عربـي!..

فليت شعري مـاذا يجدى بومة حسان المجذومة اذا نظرت وجهها في ابي رقراق ان تتقنع وحقها ان (تتخبـع) كأخواتها منشدة مع الحطيئة قوله الصائب:

اري لي وجها قبح الله خلقه   فقبح من وجه وقبح حامله!

ونورد ثانيا ان صديقنا الناقد لما رأى نفسـه تورط في حبالة هذه المناقشة وكان وعد القراء بانه سيصطاد وانه يعرف

كيف يصطاد، لم يسعه الا ان ينحي مقالاتنا من الجريدة ويمهد لذلك اولا بحذف التقرير الذي كتبناه على حاشيته وهو الذي ضمناه صدر المقال الثالث وثانيا بحذف كلمة (لكل مقال جواب) من آخر مقالنا الثاني لاجل ايهام القراء اننا عيينا بجوابه، وثالثا بعدم نشر مقالنا السابق كله ورابعا باقفال باب هذه المناقشة بعد استكمال رده على مقالاتنا الاولى. وكان من الحق والطبيعي ان يدع لنا مجالا للجواب عن مقالاته كلها فانه كان اول متكلم فيجب ان تكون الكلمة الاخيرة لنا.

.. ولكنه كان قد وعد القراء انه سيصطاد وانه يعرف كيف يصطاد فها هو قد اصطادنا ببراعة تقصر عنها براعة (طرطران) الذي كان يوثق له الصيد ويرميه فلا يصيبه!..

ثم نورد ثالثا ان حضرة الناقد ـ مع التصفيق له والاعجاب ـ ما زال يستدرك علينا شعراء لم نذكرهم. ولقد فاته ـ كما قال ـ ان يستدرك شاعرا آخر اصطدم به اخيرا، ونحن بدل مناقشته في هذا الشاعر نذكره بأعظم أمير شاعر كان يجب ان يستدركه علينا من اول وهلة، وهو مع هذا التتبع والاستيعاب وهذه الاحاطة والشمول لم «يثب» الى ذهنه ولا وثب هو اليه وان كان اصحاب الذيول وثابين، ولهذا الامير بيت مشهور من أبرع الشعر لا يقصر عما ذكره الناقد في ذيوله، لانه كان في الذروة من فصاحة اللسان ونصاعة البيان على العكس من وزيره الذي كان بليد الذهن عقيم الفكر فلذلك

لم يدرك ما في بيت الامير من بلاغة نادرة وشاعرية عجيبة.
وهذا هو بيت الامير (دحو) :

ايها الفقيه المزدغي   عن الصلاة لا تغفل

وكان الفقيه المزدغي هو وزير الامير وقد زعم ان البيت غير متزن فاغتاظ الامير وامر به الى السجن ثم فكر بعد ذلك في بيته البديع وقال حقيقة ان البيت غير متزن فجعله هكذا:

ايها الفقيه المزدغي   عن الصلاة لا تغفل غ

واستدعى وزيره من السجن وعرضه عليه قائلا ها هو ذا البيت قد صار متزنا مقفى فما ذا ترى؟ فما كان من الوزير البليد الا ان اجاب بقوله: ردني الى حبسي! ...

فليسجل الاخ عبد الرحمن هذا الامير الشاعر في طالعة امرائه الشعراء فما احدمنهم بأولى منه ولا احق بالذكر والتنويه!.

وبعد هذه المقدمة نقول لاديب بوقرون: احمد الله ياهذا على ان ليس للادب محتسب، لا فقيه ولا منتسب والا لكان صرفك الى الكتاب، من بين كرام الكتاب، امن يقيم نفسه مقام الاديب الناقد يجهل عدم الانسجام بين القطعة الخالدة (لو مد صبري) وما زيد عليها من بيتي (وكيف يصبر) ولا يقف عند هذا الحد حتى يتصرف فيها بالتقديم والتاخير وفي تصرفه هذا اقرار بعدم الانسجام فيجعل بيت وكيف يصبر ثانيا

لبيت لو مد صبري ذلك البيت الذي يغرق في خضمه العظيم
الف بيت من باب وكيف يصبر ... ؟

امن يتصف بالادب والنقد يروي الابيات مشتملة على عيب الايطاء ولا يفطن له حتى ينبه اليه فلا يجد سبيلا الى التخلص الا المراوغة ونكران ان تكون تلك هي الرواية وقد نقلها هو بنفسه كذلك، فما ذا تهمنا الرواية بعد ان اثبتها انت نفسك معيبة، وهل اذا وجدت سليمة عند المرزباني يكون ذلك شفيعا لك ومبرئا من عدم مؤاخذتك بعيب الايطاء الذي رويتها به .. ؟ ..

امن يتحكك بالادباء والنقاد لا يجهل من هم القدماء من الشعراء ويجعل ابراهيم المؤبل منهم ؟ وهل في المغرب من يعد في طبقة الشعراء القدماء ؟ فيا ضيعة الادب وتاريخه عند استاذ آخر الزمان !

امن يتكلم في الادب وتاريخه ويحاول ان يكون له رأي في الادب المغربي يجهل اعلام ادباء المغرب ويختلط عليه الامر بين من تأصل في الاندلس ومن اقام فيها مدة من الزمن فهو يستنكر ان يكون الاستاذ ابو بكر بن شبرين مغربيا ـ كما عددناه في النبوغ ـ لكونه اقام في الاندلس زمنا ما ويتكيء عليه ليعد الاديب ابراهيم المؤبل اندلسيا كما ادعى في تعليقه، واذن فهل يكون ابن رشد وابن طفيل وابن زهر واضرابهم مغاربة..؟

امن يسف الى ان يعتقد ان ذوي النسب الواحد يجب ان يكونوا من بلد واحد. فكل ادريسي مغربي ولو ولد وعاش ومات في الاندلس - يصح ان ينتمي الى اسرة المؤرخين والنقاد..؟

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

كيف عميت يا اديب بوقرون عن جمال الدعوة الناصرية ولم تدرك ما فيها من بلاغة وسحر بيان وقوة اسلوب وجو شعري مؤثر يستولي على المشاعر والقلوب؟..

كيف عميت ياصاح عن جمال البيتين (الله يلطف بالعباد) وحسن موقعهما فيما قيلا فيه واحكام نظمهما ولطف مسلكهما لتضمين الاية الكريمة التي زادتهما جلالا وروعة ؟..

كيف عميت عن جمال البيتين (الاهي سألتك بالمصطفى) وما فيهما من حسن التوسل وادب الدعاء وإشفاق هذا العبد المنيب الى الله من الخزى والعذاب يوم القيامة وكل ذلك في رقة وطبع وافتنان اخاذ؟..

فان كنت لا تدري فتلك مصيبة وان كنت تدري فالمصيبة أعظم

لقد ظن اديب بوقرون (وبعض الظن اثم) اننا ما عبنا بعض الابيات التي استدركها علينا وقلنا اننا تركنا قصدا لتفاهتها ورداءتها الا من اجل كون موضوعها هو الدعاء والابتهال والتضرع. ولا، وسمعته الادبية التي بقيت بمنجاة من الدوس، فان الدعاء موضوع شريف حسبه انه ورد فيه الحديث الصحيح (الدعاء مخ العبادة) وقول الله تعالى (قل ما يعبأ بكم

ربي لولا دعاؤكم) وضمنه البغدادي في الوتريات فقال:
... فلولا الدعا ما كان بالخلق يعبأ ... فلو كان الدعاء بمجرده مما يعاب به الكلام لكانت هذه النصوص نفسها خارجة عن نطاق الادب ومعدودة في غير باب من الكلام البليغ.

لكن الحقيقة هي ان الدعاء من موضوعات الكلام الجميلة وانما يلزم ان يتناوله اديب مبدع فيبعث الوجدان والخشوع من مكامنهما في القلوب، ويهز المشاعر والنفوس هزا عنيفا فمن باك على ما فرط في جنب الله، ومن تائب نازع عما اوبقته فيه نفسه الامارة بالسوء الى غير ذلك من انواع التاثرات بحسب اختلاف الحالات واي اثر محمود يراد من ارفع انواع الادب ابلغ من هذا الاثر؟..

هل قرأ الاديب الكبير الذي يحسب ان الادب انما هو حياة الحب والمدام الدعوة الناصرية مرة واحدة بهذه الروح وهذا الاعتبار ليرى ما فيها من آيات البلاغة وسور الابداع!..

هل في الوجود من له مسكة من الطلب فقط (لا الادب) من يقرن هذه الدعوة الفذة او الابيات الاربعة السابقة الذكر بالذيل الذي يتمسك به صاحب الذيل وهو (وارغب خالقي في العفو عني) ويرى ان بينهما مناسبة ما حتى يسوغ ذكره معها؟

نعم كان يجب ذكره معها لاظهار ما في تلك من الروعة والجمال وما فيه من الضعف والاختلال. ويكفي اللحن الواقع في اول كلمة من هذا الذيل وهو قوله (وارغب خالقي)

لنبذه وعدم الالتفات اليه فما بالك بما يعده من التفكك والانحلال:

يناديي ربه باللحن ليث لذاك دعاؤه لا يستجاب

وكما قلنا ان الناقد اصبح من خواصه الخروج عن الموضوع فهو قد ترك الجواب عما توجه عليه من هذه المسائل وجعل يتعلق بكتاب النبوغ ويقول لما ذا ذكرنا فيه الدعوة الناصرية وأمثالها مما سبق بيانه توهما منه ان الدعاء ليس من موضوعات الادب ثم تعلق بأبيات القصار المذكورة في النبوغ وهي:

تسع أبى منها اولوا الاحلام والهمم السنية

الى آخرها جاعلا منها مبررا لذكر ذيله (وارغب خالقي) ومن يستطيع ان يفهم الحكيم توما انه يجهل ويجهل انه يجهل؟.. فليت شعري ما ذا يعيب اديب بوقرون من هذه الابيات الحكيمة النادرة؟ .. هل اختل فيها شيء من ناحية الصنعة كما اختلت ذيوله المنبوذة؟ هل رابه منها هذا العدد المضبوط وتوهم لقصوره ان ذلك ليس من اساليب الشعراء والادباء فما قوله اذن في ابيات طرفة: ولولا ثلاث... وقول الشافعي:

ان المكارم اخلاق مطهرة فالعلم اولها والدين ثانيها

الى آخر العشرة .. ؟

هل الذي انكره منها هو ذكر الامامة وما اليها وقوفا مع المساطير ولكون ادب الدين والفضيلة والخلق لا يروقه؟ فيا ما اعظم فجيعته في العقل المستنير الحاكم على الاشياء باستقلال القادر قدر البينات واختلافها وما ينتج عن ذلك الاختلاف من

تميز في التصور والتعبير! ومهما يكن الامر فما بال طويل الذيل يستشهد بآخر بيت منها ويغزوه سداد حكمه وسلامة مأخذه حتى ينسى السياق الذي اورده فيه من الزراية عليه الى الازراء به على الغير:

فسد الزمان واهله   الا القليل من البرية

هذا قول القصار وقال شاعر آخر:

فسد الزمان كما ترى من حاله   وكذا عوائد آخر الازمان

وقال ثالث:

يقولون الزمان به فساد   وهم فسدوا وما فسد الزمان

فاين يرى القارئ موقع البيتين من بيت القصار وقد ذهب كل واحد منهما في طرف واخذ القصار بالفكرة الصواب؛ فليس الزمان هو الذي فسد وحده ولا الناس جميعهم فسدوا ولكن الانحراف وقع منهما معا وبقي بعد ذلك خير وان كان فيه دخن!..

فسد الزمان واهله   الا القليل من البرية

حكمة خالدة رتبت على وصية عملية عظيمة وذلك هو سر ايداعها في النبوغ في باب الوصايا والحكم! فيا لضيعة الاداب المغربية بين الاهمال وسوء الفهم:..

وبعد فما نرى الاخ عبد الرحمن الفاسي من خلال هذه المناقشة الطويلة الا مثل جراب الكردي فيه كل شيء بزعمه فلما فتش لم يوجد فيه الا كسرة خبز يابسة وقطعة جبن وحبات زيتون.

كتاب الذخيرة لابن بسام

كان يوما سعيدا حقا، بالنسبة لي على الاقل ومن الوجهة الادبية بالخصوص فقد حمل الي صديق عزيز كتابين جديدين مما جاء به احد افراد البعثة العلمية الواردة من مصر احدهما مجموعة دواوين عربية. والاخر كتاب الاندلس المسلمة لعبد الله عنان ثم بعد فترة وجيزة حظيت من طريق آخر بكتاب الذخيرة لابن بسام ذاك الكتاب الذي يهمنا معشر الباحثين، في الادب والتاريخ المغربيين كثيرا والذي طبع منذ أوائل هذه الحرب ولم يصلنا. وكنت انا قد طلبته بالفعل وقدمت ثمنه ولكن بغير جدوى ثم ما انتصف ذلك اليوم حتى بلغتني هدية من أخ حميم هي كتاب مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين لابي الحسن الاشعري في جزأين وثالث للفهارس طبع في اسلامبول بعنا ية المستشرق الالماني هـ. ريتر ـ فكان يوما سعيدا حقا بالحصول على هذه الكتب النفيسة من غير توقع لذلك في أيام الحرب هذه وانقطاع المواصلات.

وقد بدأت بقراءة كتاب الذخيرة وكنت كلما تقدمت في قراءته تذكرت طرف ذلك الاخ الاديب الذي حال المنفى بيننا وبينه فانه كان يأتيني ويجد عندي بعض الجرائد والمجلات المصرية فيقول لي ان من يحمل لك هذه الصحف يريد ان يستميلك بها

لو حمل اليك كتابا من المطبوعات الجديدة لاستمالنا جميعا فأقول له حسنا. وما ذا تريد من الكتب فيقول كتاب الذخيرة من اهمها. كان الله لك ياأحمد ورد غربتك! فها هي الذخيرة قد بلغتنا وها انا قد طالعتها ووددت لو امكنني ان ابلغك انها ليست من الاهمية بالمكان الذى كنا نظنه ولا سيما بالنسبة الى الأدبيات المغربية فان حظها منها ضئيل جدا ولم يات بعد الجزء الذي تعرض لها فنحكم له او عليه اذ ما بلغنا منها لحد الآن الا الجزء الاول وقد استغرقه كله على ضخامته تراجم اربعة من ادباء الاندلس ابن دراج القسطلي وعبد الوهاب ابن حزم وابن شهيد وابن زيدون في بعض ادباء صغار وامراء من عهد الفتنة.

ولزيادة التعريف بالكتاب نقول ان كتاب «الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة» لابي الحسن علي بن بسام الشنتريني المتوفي سنة 542 قد الفه صاحبه على نسق كتاب اليتيمة لابي منصور الثعالبي وقسمه اربعة اقسام: فقسم لولاية قرطبة وقسم لولاية اشبيلية وقسم لولاية بلنسية وقسم للطارئين على الاندلس من مشارقة ومغاربة واخرجت المطبعة القسم الاول في مجلدين ليس بيدنا الان منهما الا المجلد الاول.

وقد كان المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال يريد طبعه استقلالا ثم تنزل عنه للجنة مؤلفة من كبار اساتذة الادب في مصر وحسنا فعل فانه ما كان ينهض بنشره نشرا علميا

وحيد اللهم الا ان يكون نشرا تجاريا رخيصا وان سمي ـ لكونه عملا اجنبيا ـ نشرا علميا. وسيرى القارئ انه على قيام هذه اللجنة بنشر الكتاب لم يخرج كما يجب ان يكون فاحرى لو انفرد به مسيوليفي.

وقد الفت هذه اللجنة من بعض طلبة كلية الادب في الجامعة المصرية مع المسيو ليفي وهؤلاء كلفوا بمعارضة نسخ الكتاب وتهيئة النص الذي يجري عليه الطبع وتصحيحه، ومن اساتذة الكلية احمد امين ومصطفى عبد الرزاق وعبد الحميد العبادي وعبد الوهاب عزام وطه حسين مع ليفي بروفنسال ايضا وهؤلاء كان عملهم مراجعة النص الذي هيأته الجماعة الاولى وعرض ملاحظاتهم عليه وكان الدكتور طه حسين هو الذي كتب مقدمة الكتاب من بين هؤلاء وعلى كل حال فان اخراج الكتاب من الناحية الفنية كان بديعا للغاية وهو مضبوط بالشكل الكامل.

ومقابلة النسخ بعضها مع بعض فيه دقيقة جدا بحيث كادت تكون في بعض الاحيان عديمة الفائدة لولا ما يحمل على اثباتها من الحرص على الامانة العلمية.

وانما نلاحظ ان التصحيح لم يكن كاملا بحيث وقعت في الكتاب اخطاء لغوية وأدبية كان بودنا ان يكون سليما منها. ولولا أهمية القائمين على نشره لما اعرناها انتباها ولكن الخطأ الصغير يستعظم من الكبير.

ونشير الى بعضها ليلا يتوهم اننا نلقي الكلام على عواهنه.

فمن ذلك كلمة (المفاتشة) ص 4 الظاهـر ان صوابهـا المنافثة لا سيما وقد عطفت على كلمة المباحثة فتناسبهـا من حيث المعنى واللفظ. واما المفاتشة فهي كلمة لم ترد في اللغـة والغالب انها تصفحت على المصححين من كلمة المنافثة التـي استظهرناهـا.

ومن ذلك في ص 9 قول المؤلف «جعل الله الدهـر أقصر ايامه والنجوم مراكز اعلامه» جعله المصححون اقصى ولا يناسب مقام الدعاء الذى يريد منه الكاتب ان يكـون هذا المدعـو له طويل العمر حتى ان الدهر كله يكون يوما من ايام عمـره ومن الايام القصيرة مع ذلك.

وفي ص 51 ضبط المصححون لفظة زناته بفتـح الـزاي وكذا في سائر الكتاب وهي بالكسر على المعروف وعليـه اقتصر في القاموس.

وفي ص 62 جاء هذا البيت اثناء قصيدة هكـذا:

واملا سمع الدهر من سحر ما أملي

وقد وقع فيه العروض سالما وذلك قبيح ولم يقع في الشعر الا شاذا قليلا ولم ينبه المصححون على ذلك ولا على انه كذلك في جميع النسخ الاصلية كما يفعلون في اقل من هـذا.

وفي صفحة 71 وقع شكل مرضغة بفتح الميم وهي بالضم ولعله غلط مطبعي فقط.

ومن ذلك كلمة عرس في هذه العبارة ص 128 «وطلق عرس الشعر ثلاثا» ضبطت بضم العين وهو خطأ والصواب الكسر وهي العروس. ومن ذلك هذه الفقرة في ص 135 : «قبح الله زمانا يقرب الى اللئيم حصانا والى الكريم اتانا» ضبط المصحون حصانا بالكسر يريدون به الفرس حين رأوه في مقابلة الاتان وهي انثى الحمار والصواب ان حصانا بفتح الحاء وهي المرأة الحصينة المتمنعة من العفاف والتصون قال حسان ابن ثابت في السيدة عائشة:

حصان رزان ما تزن بريبة   وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

والموضوع ايضا يعين ذلك حيث ان الرسالة في امر مصاهرة.

وفي ص 140 قال المؤلف «فانه كان كالبحر لا تكف غواربه» وهو من وكف فجعله المصحون من كف وضبطوه بالضم والتشديد.

وجاء هذا البيت ايضا في ص 245 :

قالت اذا ماجئنا فائتنا   ليلا اذا ما هجع السامر

ولكن سقطت منه ما بعد اذا الثانية وهو كذلك لا يتزن.

وهذا البيت ايضا في ص 262 :

مرض الجفون ولثغة في المنطق   سببان جرا عشق من لم يعشق

ضبط المصحون لفظة سيان بكسر السين وتشديد الياء يعنون تثنية سي بمعنى مثل وقد ابعدوا النجعة فانما هي سببان تثنية سبب كما لا يخفى.

وهذا البيت ايضا في ص 277 :

تثاءبت كي ابغى لدمعي علة   وكم مع لوعاتي بغاء التثاؤب

ضبطوا بغاء بكسر الباء وفتح الهمزة وعلقوا على البيت (كذا في الاصول) يعنون انه غير صواب والامر على العكس فان البيت ظاهر المعنى لا غبار عليه ولكن اذا قرئ بضم باء وهمزة بغاء وهو الاسم من بغى الشيء يبغيه فالشاعر يقول انه يتثاءب ليخفي سبب بكائه الحقيقي ويظهر ان دموعه انما هي بسبب التثاؤب ولكن كم يكفيه من التثاؤب لتعمية امره واخفاء سره فهو قوله كم مع لوعاتي بغاء اي طلب التثاؤب؟..

وهذا البيت الرابع ص 285:

عشنا اليفين في بر الهوى زمنا

حتى رقى بنوانا طائر الشوم

ضبطوا رقي بالراء وبكسر القاف من الرقي وعلقوا على العبارة بالاشارة الى انها كذلك في نسخة باريز وليفي بروفنسال وتيمور وهذا مما يظهر ان المصححين لم يكونوا يعتمدون في التصحيح الا النسخ اما العلم واللغة والعروض والادب فانها كانت منهم دبر الاذان على طريقة المستشرقين ونعني بهم المستشرقين القاصرين لا المتمكنين فان هؤلاء بعد اعتماد النسخ المختلفة يرجعون الى النظر والتحقيق العلمي.

وقد عرفت هذا من امر آخر وهو الاشارة الى مقابلة بعض نصوص الكتاب على بعض مطبوعات المستشرق ليفي بروفنسال كاعمال الاعلام والجزء الثالث من ابن عذارى فباستثناء هذين المرجعين من كتب التاريخ والادب الاندلسي لا تجد للمصححين اشارة واحدة الى مقابلة اخرى على كتاب

آخر اللهم الا ان يكون ذلك في بيت لشاعر معروف يقابل على ديوانه او نحو ذلك من العموميات، كأن العلم مقصور على هذين الكتابين ومقابلة نسخ الاصل المطبوع عليهما.

وهذا امر يظهر لنا ان اصبع ليفي هو الذي كان يحرك لجنة التصحيح او قل انه هو الذي وضع خطة العمل واشرف على توجيهه. وهاك الآن صواب اللفظة فانها زقا بالزاي والقاف بمعنى صاح يقال زقا الطائر او الصدى يزقو قال:

فان تك هامة بهراة تزقو   فقد ازقيت بالمروين هاما

ومن امثالهم اثقل من الزواقي وهي الديكة لانها تصيح سحرا فيتفرق السمار والاحباب.

فمعنى زقا بنوانا طائر الشوم صاح بفرقتنا الطائر المشؤوم من الغراب او البوم ونحوهما.

وهذا البيت الخامس ص 316:

ارسل حليما واستشر لبيبا

الراجح ان صوابه حكيما على حد قوله:

فارسل حكيما ولا توصه

ويحسن ان ننتهي عند الحكمة من هذه الملاحظات التي قلنا انها صغيرة ولكنها بالنسبة الى الكبراء كبيرة، وبقيت هناك ملاحظات اخرى يقتضي امر تحقيقها تعبا، وما لنا نتعب انفسنا واساتذتنا الكبار يريحون انفسهم بالمرة فلا ينظرون حتى في هذه الجزئيات القريبة؟...

ديوان لمحات الامـل للمقدم

ينتظم الشعر في سبكه العجيب كل الفنون الجميلة تقريبا، وبهذه النظرة انظر اليه دائما. ولعل غيري من المفتونين به ينظرون اليه كذلك اما الشعراء فلا ريب عندي انهم يقدسونه ويجعلونه فوق الجميع، وذلك سر اعتزالهم، وتيهانهم في اودية الخيال وبوهميتهم المحببة التي لا يبغون بها بديلا: فإنهم قد اكتفوا به عن كل ما يجذب غيرهم الى الاجتماع ومداخلة الناس، اذ يتحدثون اليه حديثا نفسيا ألـذ واشهى من كل حديث يمكن ان يتحدثوه في المحاضر والمجتمعات.

ويسمعون منه موسيقى روحية ذات انغام علوية تجعل موسيقانا نحن الذين لسنا بشعراء في نظرهم اشبه بـأنغام الزنوج واصوات السنانيـر.

وهم يشاهدون فيه دائما متحفا مكتظا بالصور البديعة، والتماثيل الجميلة التي لم تختطها ريشة مصور، ولم ينحتها ازميل مثال: متحفا يكاد من بهر آياته الفنية يخاطب شاهده بما فيه، حتى ليستوى في التمتع بعجائب مصنوعاته البصير والاعمى والقريب والبعيد. فما لهم اذن لا يجتوون عالم العامة الذين ليسوا بشعراء، وينقطعون الى عالمهم القدسي الذي لا يلتقون فيه الا بكل نفس مهذبة قد صقلها السمو الروحي وكيفتها الاذواق الفنية المبدعة؟...

وإذا قال شوقي مخاطبا لهم (انتم الناس ايها الشعراء) فانه مصيب وعلى حق في ذلك القول.

✡ ✡ ✡

لا ازعم ان الشعر كله كذلك، فان الشعر طبقات: منه ما يهز المشاعر ويضرب على اوتار القلوب، ويكون تعبيرا صادقا عن عواطف النفس التواقة التي لا تستطيع التعبير. ومنه ما يبهج ويطرب ويكون كالملهاة يلامس شعورك ويداعب وجدانك من غير ان يعنيك بما لا يعنيك. ومنه ثقيل غث يغثى النفوس وتهاض منه القلوب. فلا كان ولا كان ناظموه. ولهذا قال الشاعر:

الشعر صعب وطويل سلمه ... اذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه ... يريد ان يعربه فيعجمه

وما أحسن قول شاعر العراق صدقي الزهاوي:

اذا الشعر لم يهززك عند سماعه
فليس خليقا ان يقال له شعر

وقوله:

حبذا الشعر اذا كا ... ن جميلا كالزهور
وإذا كان شجيا ... كأغاريد الطيور

وقد خفيت هذه الحقيقة على بعض الناس فظنوا كل منظوم شعرا، بل حتى النظم لم يبق له عندهم وزن ولا اعتبار، فصار اعلى الكلام أدناه، والكلام الذي تمثل فيه الفن بجميع مظاهره هذرا وهراء من القول، والكلام الذي هو اشبه شيء

بالرياض النضرة المخضوضرة المزدهرة مثل وادي الجحيم ليس فيه الا القذر والعذاب ، فكيف يرقى الشعر ويحيا الفن بين هؤلاء القوم ؟....

* * *

وللشعر في بلاد المغرب عيبان ، عيب في المعنى وعيب في اللفظ.

فأما عيبه المعنوي ، فهو ما قصر الشعراء الشيوخ انفسهم عليه ، من مواضيع مستكرهة لم يبق لها مساغ في أذواق الناس اليوم كالمدح والرثاء ، وما الى ذلك ، وخاصة اذا كان فيمن لا يستحق مدحا ولا رثاء وهو الغالب ، واين من يستحقهما اليوم إلا ما ندر ؟

وأما عيبه اللفظي ، فهو ما يحاول الشعراء الشبان اقتحامه من مواضيع الشعر الحقيقية ، ولكن لفظهم يقصر عن بلوغ ما يريدون ، وكثير منهم يقصر لفظه ومعناه عن ذلك.

وحيث أن هؤلاء هم الذين يهمونني لان نهضة الادب في هذه البلاد انما تكون على أيديهم ، فإني سأخصهم بكلمة موضوعية.

فأولا انا احيى فيهم هذه الروح السامية التي تحلق في الاجواء ولا ترضى بالارض بدلا من السماء.

وثانيا أود لو تضلعوا من الثقافة اللغوية والثقافة العامة حتى اذا تناولوا موضوعا ما من المواضيع الشاعرة التي يعلقون

بها ، يؤدونه على اتم الوجوه سواء من جهة العمق والاستيفاء في الفكرة او من جهة الاسلوب والبيان .

ولا اقول ان كل شعراء الشباب بحاجة الى نصيحتي هذه حاشا وكلا! فان من بينهم شعراء موهوبين تبشر بداياتهم الطيبة بنهاياتهم الحسنة بل الحسنى !

ومن هؤلاء الشاعر النابغة السيد عبد القادر المقدم الذي نقدم ديوانه الاول وباكورته الادبية الى القارئ ، هذا الديوان اول ما لاحظت فيه انه خال من عيوب العروض والقافية التى قل ما خلا منها شعر ينشر في هذه الناحية الهبطية من نواحي المغرب ، حتى كاد ينشأ بين المتأدبين اعتقاد ان هذه الناحية عقيم في الذوق الشعري والقريض المختار... وقد عرفت ان شاعرنا تلقى حب الشعر عن والده الذي له بذلك مساس وتمرس واستيناس فصقل ذوقه الفني وهذب سجيته الشعرية منذ الصغر، وبذلك نشأ وهو شاعر «موزون»

ثم مما يلفت نظر القارئ لهذا الديوان ، هذه الروح الوطنية التي تشيع في انحائه . وهي تنبئ عن اخلاص عميق وعاطفة مقدسة ان لم تكن هي الشعر فماذا تكون غيره! وهاك نموذجا من وطنياته :

يا فتية الشعب يا مناه ✲ من منكم يفتدي حماه!
اصابه الجهل في حشاه ✲ فهو شقي بما عداه!
فهل رضيتم بما دهاه؟! ✲ وهل تجلون من رماه؟!
من بينكم يبتغي دواه ✲ وانتم انتم رجاه!!

وهو مقطع من موشح
وخذ هذين البيتين من قصيدة:

يا ابن المغاربة الاشاوش اننا — في ميعة التكوين والاحيا
فتصفح الماضي فكل صحيفة — لك سلم لتسنم العليا

أما في الناحية الوجدانية الصرف والوصفية فقد اعجبني منه ابيات كثيرة كقوله:

يهون علي احتمال الردى — وليس يهون احتمال الفراق
ليالي الحياة تمر سدى — اذا لم تكن في سبيل التلاق
بلوت الليالي الا غدا — انا منه في لوعة واحتراق

وقوله:

بضة ناعمة في قدها — آية الحسن تجلت للعيون!
لو رآها عابد في مشيها — تتهادى خر من فرط الشجون!
كتب الحسن على اعطافها — ها هنا توجد آيات الفنون!
وهنا تدرك اسرار الهوى — وهنا يعرو النهى مس جنون
وهنا معنى تسامى شأنه — وهنا سر دراه العاشقون!

وما الطف قوله في قطرات الندى:

قطرات الندى على ورق الزهـ — ـر تدلت كعبرة من جفون
روعة زادت البلابل اشوا — قا فغنت بدائع التلحين
وتدانت اشعة الشمس تلقى — من حلاها عجائب التلوين
فأذابت بحرها قطرات — كن تاجا في مفرق الياسمين

فتعالت انفاسها في سما الرو ض الى اصل مبدأ التكوين

وعلى الاجمال فان في الشاعر عبد القادر المقدم روح مفن، وقد تمكن من الطينة المختارة وسيصنع منها ابدع الآثار وان له في دولة الشعر لمستقبلا زاهرا كما قال هو:

وآمالي لها دنيا فكم دوى لها صوتا؟

وقد كدت ان انتقد عليه نظرته الضيقة الى بعض الاشياء مما يتنافى مع روح الشاعر التي تسع الكون بما فيه ولا تكبر منه شيئا، فاذا بي ارى ان ذلك قاصر على القسم الاول من مجموعة شعره الذي قاله في عهد التلمذة، وهو طور من اطوار الحياة لا يكلف الانسان فيه بما ليس في طوقه، بل ان انتاجا كإنتاج المقدم في هذا الطور يعد من الفلق العظيم.



نهضة الشعر بالمغرب

اراداتني الانسة مركادير ان اتحدث الى قراء المعتمد عن نهضة الشعر في المغرب... والانسة مركادير اديبة بفطرتها وشاعرة عربية الشعور فلذلك اطلقت على مجلتها البديعة ذلك الاسم الرمزي وجعلت من اهدافها ربط الصلة بين ادباء العدوتين والتعريف بشعراء الامتين فانا اذ انزل على رغبتها فاتحدث الى قرائها عن شعراء المغرب؛ انما اساهم بقسط ضئيل في مهمة ادبية سامية عجز عن القيام بها رجال كبار وقامت بها احسن قيام هذه الانسة الرفيعة التهذيب.

وحديث الشعر والشعراء في المغرب حديث طويل يرتبط بتاريخ ادبي مجيد وبنهضة ادبية عامة في البلاد العربية التي المغرب جزء من اهم اجزائها... فمن الوجهة التاريخية كان المغرب احد الاقطار العربية التي قام للشعر والشعراء فيها سوق رائجة وما لبث صدى الحانهم السحرية يتردد في اذن المشرق حتى لقد غبر زمان لم يبق فيه من يخدم دولة «ابولو» في العالم العربي وخصوصا ايام حكم الاتراك الا جنود مخلصون من ابناء المغرب العزيز... واما ارتباط حديث الشعر في المغرب بالنهضة العربية الحديثة فذلك لان هذه الموجة التجديدية التي غمرت العالم العربي في اوائل هذا القرن فنبهت شعوره ونمت

احساسه وجعلته يغير نظرته الى فهم كثير من الاشياء، قد شملت المغرب ايضا وبعثت فيه شعور الاعتداد بالنفس والايمان بالذات فقام ينشد حياة العزة والعظمة ويغني امجاده الطائلة التي ما فتئت جبال الاطلس تشمخ تساميا بها وامواج بحر الزقاق تتراجع هيبة لها.

واذن فالشعر المغربي له اتجاه واحد معين هو حفز الهمم واذكاء المشاعر وتربية الارادة والحث على التضحية من اجل حياة الخلود فالشعراء يعتبرون كقواد مظفرين يقودون جيوشهم من معركة الى معركة حتى يربحوا معركة النصر الاخيرة.

والشعر بهذا المعنى بعيد عن فهومه الادبي الاصيل، فما جعل الله الشعر الا رجعا لصدى الابدية في مواكب الحياة وشعورا بالجمال في مجالي الطبيعة الفاتنة واستجابة لوحي الوحدة في الغاب وسحر الانس في حضرة حواء وهيمانا في اودية الجمال وشغفا بتلمح الخالق في وجوه خلقه واستماعا لصوت القدرة القاهرة في قصف الرعد وعصف الريح ولصوتها الحنون في زقزقة العصفور وخرير الجدول وتوقانا ملازما مدى الحياة الى العوالم غير المنظورة حيث تسعد نفس الشاعر وتتوالى فتوحات قلبه.. ولذلك فأنا اعتبر هذه الظاهرة التي تسيطر على الشعر المغربي اليوم، موقتة لا بد ان تزول او تضعف أمام النبع الفياض التي يتفجر من قلوب الشعراء

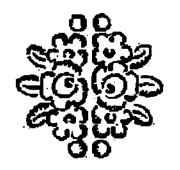
المغاربة الوجدانيين يوم يدرك الشعب بغيته ويحقق امنيته من نهضته السياسية والاجتماعية الراهنة.

ومثل هذه الحال جرى في الشرق العربي بالضبط فان طلائع شعراء النهضة انما كانوا يتغنون بمجد الاسلاف وبالحياة السياسية العزيزة التي كانوا يؤملونها لشعوبهم فلما ادركوا من ذلك ما املوا فاضت ينابيع الشاعرية العاطفية من صدورهم وفتحت لهم ابواب من القول لم يكن لاسلافهم من شعراء العرب مجال فيها بسبب هذا الاتصال الذي وقع بين الشرق والغرب وامتزاج الثقافات وتلقيح الافكار وهكذا تسير القافلة نحو الهدف المنشود.

على ان هذا لا يعني ان خواطر الشعراء كلها وقف على الشعر السياسي فان ثم نفحات عطرية يعبق بها جو بعض الشعراء هنا وهناك. ومنها هذه التي تتحفنا بها مجلة المعتمد آونة بعد اخرى وهي خاصة بشعراء المنطقة الخليفية فاذا ولينا وجهتنا الى المنطقة السلطانية نجد امكانيات اكثر واستعدادات اكبر مما عندنا فاذا توسعنا ونظرنا في اطراف هذا المغرب العربي كله نجد ان هناك شاعرا موهوبا حقا سبق زمنه بكثير لا بالنسبة الى المغرب فقط بل بالنسبة الى العالم العربي اجمع وهذا هو أبو القاسم الشابي الشاعر التونسي الذي توفي في عنفوان الشباب ومع ذلك فقد جاء منه شاعر عاطفي

ممتاز راد أودية الخيال واسمع الارواح الهامدة أنشودة البعث والنشور.

واني اقترح على المجلة ان تقدم لقرائها في القشتالية الجميلة في هذا العدد الخاص بعض أشعاره كما تقدم غيره من شعراء العرب فان من الحيف ان تقابل شعراء اسبانيا بشعراء جزء صغير من العالم العربي هو المنطقة الخليفية من المغرب.



حرفة الادب

الحرفة بضم الحاء الحرمان وسوء الحظ. وقد اشتهر ان الادب والفضل والعلم واوصاف الكمال هذه، قرينة الحرفة وان اصحابها محرومون مقتر عليهم في الرزق عرضة للافات والمصائب حتى صار الناس لا يستغربون فقر الاديب واعتماد الدهر اياه بالنكبات، ويعللون ما يصيبه من نائبات الحياة، دون ما يصيب غيره من الناس، بانتسابه الى الادب وانتحاله لاسبابه كأن من كان عاطلا عن هذه الحلية لا يصيبه شيء من ذلك مدى الحياة ولا بد ان يكون راتعا في بحبوحة العيش الرغد الرخي.

وقال قوم ان هذه الحرفة قد تسامت الى مقام الخليفة ابن الخلائف اعني به عبد الله بن المعتز لتعلقه بالعلم والادب ونبوغه في الشعر والبديع حتى مات مقتولا كما هو معلوم وقال فيه علي بن محمد بن بسام:

لله درك من ميت بمضيعة
ناهيك في العلم والآداب والحسب
ما فيه لو ولا ليت فينقصه
وانما ادركته حرفة الادب

لو بتشديد الواو وضمها مع التنوين وليت بالضم والتنوين

ايضا اي انه كامل المعاني والادوات ليس فيه نقص فيقال عليه لو كان كذا او ليته كان كذا وقوله وانما ادركته حرفة الادب بالضم اي شؤمه وتعسه ولذلك قتل وعلل بعضهم ما يكون فيه اهل العلم والادب من خصاصة واملاق بان قاسم الاخلاق والارزاق سبحانه وتعالى لما اعطى هذه الطبقة من الناس العلم والفضل والادب والحكمة؛ حرمها المال والغنى واعطاهما الجهال تحقيقا للعدل وتسوية بين خلقه في القسمة ليلا يختص فريقا بالمال وافضل من المال وهو العلم ويحرم فريقا من النعمتين معا. وهكذا وقر في ذهن هؤلاء ان العلم والمال لا يجتمعان وان الجد والفهم ضدان كما قال ابو الطيب:

وما الجمع بين الماء والنار في يدي
بأصعب من ان اجمع الجد والفهما

وقال الاخر:

تبا لرزق الكتبه ... تبا له ما أصعبه!
يلتمسون رزقهم ... من شق تلك القصبه

ويعجبني قول بعض المشايخ في هذا المعنى مضمنا شطر بيت من الفية ابن مالك:

العلماء كلهم من سادا ... او لم يسد لم يبلغ المرادا
فرزقهم مرخم منادى ... (كياسعا فيمن دعا سعادا)

الى غير هذا من الاقوال التي لو اردنا تقصيها هنا لطال

بنا الكلام. وانما يهمني الآن ان اكر على هذه المزاعم بالنقض والابطال فما كان لها ان تحتل عقول الجيل الطالع من طلبة العلم وعشاق الادب وهي حديث خرافة ليس لها نصيب من الصحة وانما اولع بها الناس لتعليل الحوادث وتفسيرها بالحق والباطل كما اولعوا بنسبة الكوارث الى الدهر ولومه على ذلك ووصفه بالخؤون والمتقلب وما الى ذلك مع انه بريء من جميع ما نسب اليه براءة الذيب من دم يوسف عليه السلام، والا فكيف نقول في هذا النبي الذي قال (اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم) وقال الله تعالى فيه (وكذلك مكنا ليوسف في الارض ولنعلمه من تاويل الاحاديث) فلو كان العلم يتنافى مع المال والدين لا يجامع الدنيا لما آتاهما الله هذا العبد الصالح وقال سبحانه وتعالى في حق داود عليه السلام (وءاتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) وبين شمويل النبي لبني اسرائيل ان المال ليس هو سبب الرياسة والتقدم حين قالوا في طالوت (أنى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ولم يوت سعة من المال)؟ قال: (ان الله اصطفاه عليكم وزاده بصطة في العلم والجسم والله يوتي ملكه من يشاء) وهل بعد الملك عز ورفعة شأن، فينالهما الانسان بالعلم والعرفان؟..

ونحن قبل ان ننظر الى الادباء والعلماء المحرومين، ننظر الى الجهال والصعاليك الذين احاط بهم البؤس من كل جانب وكتب عليهم الشقاء ضربة لازب فنجد انهم يفوقون عدد

الادباء الفقراء بعشرة اضعاف بل بما لا حد له من التضعيف.
وانما ذكرنا هذه العشرة على عادة العرب في ذكر السبعين والمائة مثلا وهم يريدون الكثرة والتعداد ولا يقصدون ذلك العدد بنفسه. وما جعل الناس ينتبهون الى الاديب المحروم ولا ينتبهون الى غيره الا لما له من مقام مرموق وقدر مرفوع فهم يتقصون احواله ويعرفون ما زاد فيه وما نقص بخلاف غيره من عامة الناس وصعاليكهم فانهم وان كان الحرمان شعارهم والفقر دثارهم فانهم كالحيوان الاعجم لا يؤبه لهم ولا يهتم احد بشأنهم . . وذلك نظير الكلمة النابغة تصدر عن مطلق الناس لا يلقى لها احد بالا فاذا صدرت كلمة اقل منها شأنا من رئيس كبير او ملك عظيم تلقفها الناس وتناقلها الرواة ونعتوها بالنعوت الفائقة وسجلت في دواوين التاريخ كأنها وحي من السماء ، فعلى هذا النحو يهتم الناس بفقر العالم وبؤسه وشقائه دون غيره من طبقات الناس ويذهبون في تعليل ذلك المذاهب المختلفة منها الصحيح ومنها الباطل كقولهم ان السبب في خصاصته هو فضله ونبله ليس الا.

وأما كون ابن المعتز انما اصابه ما اصابه بسبب ادبه وفضله وتميزه بهذه الحلية على غيره من الخلفاء وان ذلك دليل على شؤم الاديب ونحس طالعه فيقال عليه ولم اصاب القتل والتعذيب غيره من الخلفاء أو الملوك والامراء الذين ليسوا بادباء وهم اكثر عددا؟ بل لم نجا غيره من الخلفاء

والملوك الذين كانوا ينتسبون الى العلم والادب والفضل مما اصابه هو كالرشيد والمامون وتميم بن المعتز الفاطمي واحمد المنصور الذهبي وغيرهم. أليس الصواب ان الامر قضاء وقدر يجري على الاديب وغيره والكل من عند الله؟ وكما انه لا علاقة بين الادب والحرفة كذلك لا منافاة بينه وبين الغنى والمال والثروة.

فكم اديب صار كالنطف غنى وكان افقر من المذلق!

والادباء الذين كانوا يرتعون في بحبوحة النعيم قديما لا يكادون يحصون وناهيك انه غبر دهر على الدول العربية كان لا يتولى الوزارة فيها الا اديب ممتاز وهذا الصاحب بن عباد في الشرق وابن زيدون في الغرب وخلافهما كثير من الادباء الذين اثروا وتأثلوا المال والعقار بسبب الادب. وفي العصر الحاضر يكفي ان نذكر شوقي وهيكل وطه حسين لنعرف ان الادب هو سبب الثروة والغنى لا سبب الفقر والحرمان وهذا في الشرق وعندنا معاشر العرب، اما اذا نظرنا الى الادب عند الغربيين فانا نجد الادباء اغنى من الملاك والتجار الكبار بسبب رواج الادب وانتشاره كثيرا بين الجمهور فتجد الشاعر او الكاتب يكسب من ديوان له او كتاب مبالغ طائلة في كل طبعة تخرج من كتابه فما بالك اذا كان له كتب عديدة وطبعت مرارا كثيرة؟ لا جرم انه يكون يتلاعب بالاموال كيف شاء وينفق بغير حساب.

ومن ثم نعلم ان الله سبحانه لم يخص قوما بالمال وقوما بالعلم تسوية بين خلقه في القسمة وانما اعطى كما اراد المال والعلم قوما وحرم آخرين منهما معا واعطى فريقا العلم دون المال وفريقا آخر المال دون العلم لحكمة يعلمها هو سبحانه وتعالى. واذا كان هذا حكم المال فكذلك الجد بفتح الجيم اعني الحظ والسعد والنصيب ليس مصروفا عن ذوي الفهم كما زعم المتنبي فكم من بليد محروم وفهيم محظوظ. والامر في ذلك اعتباري محض فان الناس لا يستغربون نجاح الحاذق الفهم وفوزه ولكنهم يستغربون كثيرا ما يصيب الغبي الفدم من نجاح قليل في بعض المرات فيستعظمون ذلك عليه ويكبرون امره ويذهبون الى القول بان الجد قرين البلادة والسعد نصيب الاغبياء وهو كلام ملقي على عواهنه ويعوزه كثير من التحقيق.

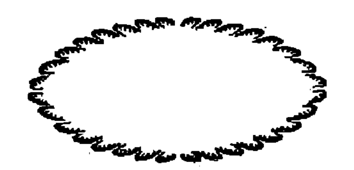
والخلاصة انه لا الادب ولا العلم يحرمان صاحبهما من الحظوظ الدنيوية وانه لا الجهل ولا الغباوة يكونان سببا في اسعاد المتصف بهما بل الامر في الغالب على العكس وهو ان اكثر العلماء والمتادبين هم من الاغنياء والمستورين بخلاف اكثرية الجهال والاغبياء فانها هي التي تكون الطبقة الفقيرة في الامم كلها، ويظهر لنا ان الامر كله يرجع الى الجد بكسر الجيم والاجتهاد والنشاط والعمل فمن كان على جانب من ذلك اثري واستغنى وحصل على نصيب من الدنيا سواء كان من العلماء او من غيرهم ومن كسل وعجز افتقر

وحرم فلا يلومن الا نفسه ولا يتهم علما ولا ادبا.

وما اصدق قول الشاعر في المعنى:

الم تر ان العجز زوج بنته   من ابن التواني حيث ساق لها مهرا
فراشا وطيئا ثم قال لها اتكي   قصارا كما لا شك ان تلدا فقرا

نعم لزيادة تقرير نظران العلم والادب يكونان سببا في الغنى ولا يكونان سببا في الفقر يمكن ان نعلل ما نراه من حرمان بعض العلماء والادباء بانهم لانصرافهم بكليتهم وقلبهم وقالبهم الى ما هم بصدده من العلم والادب لم يبق لهم وقت للاشتغال بجمع المال وتدبيره فلذلك يلازمهم الفقر والاحتياج، والذي كان له من الجد والنشاط ما يقدر معه على طلب الدنيا وعدم التفريط في العلم يحصل على النتيجتين ويفوز بالحسنيين معا والله الموفق.



ما هو احسن كتاب قرأته في موضوعه ؟..

وجه الي الاديب التونسي السيد مصطفى بن حميدة هذا السؤال فاجبته بما يلي:

لا يمكن الجواب باطلاق عن هذا السؤال، وخصوصا لمن كان مثلي على كثرة ما قرأ من الكتب في الموضوع الواحد، لا تزال امامه لائحة طويلة بالكتب التي لم يقرأها في كل موضوع. فانا اذا تمنيت ان اعيش طويلا، فانما اتمنى ذلك لاجل ان استوعب ما اريد من الكتب. واذا كان ثابت البناني قال: «اللهم ان كنت اعطيت احدا من خلقك الصلاة في قبره، فأعطنيها» وقيل انه كشف عن قبره فوجد قائما يصلي - فانا ادعو الله القادر الذي لا يعجزه شيء، ان يمتعني في الحياة الاخرى بغرفة مطالعة، تجبى اليها ثمرات العقول: من كتب ومجلات، وصحف ادبية، ودواوين شعرية قديمة وحديثة؛ حتى اكون على اتصال تام بالحياة الفكرية في الدار الدنيا قبل فنائها، وامتع نفسي فى الجنة بعد فناء هذه الدار باعظم لذة روحية في نظري. واللذة الوحيدة في نظر الرازي كما قال في جمع الجوامع: «وحصرها الامام والشيخ الامام في المعارف»!..

ومن هنا اعتبر انى لم احظ باي موضوع، فلا اعرف احسن كتاب فيه.

ومن وجه آخر فانه اذا كانت اكثرية الكتب مكررة لبعضها، فان كتبا كثيرة لا يمكن ان ينسحب عليها هذا الحكم؛ لانها تتمم البعض الآخر ولا تكرره. وهل يمكن للاديب ان يستغني بالعقد (ولا اقول الفريد فان مؤلفه لم يسمه بذلك) عن (عيون الاخبار)، او بهذين معا عن (الاغاني) ؟..

لذلك فان تعيين كتاب واحد، في موضوع واحد والقول بانه احسن ما قرأت، يكون فيه تسامح كبير، وان شئت فقل ظلم كبير!..

غير اني استثني من ذلك، الكتاب الازلي الخالد؛ كتاب الله الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فهذا الذي اقول فيه بدون تحفظ انه احسن كتاب قرأته بل حفظته ولم ازل اقرأه منذ الصبا حتى لا احصي كم مرة ختمته. ودائما اجد فيه شفاء للنفس، وغذاء للفكر، وشرحا للخاطر، ونورا للبصيرة. لا ادري هل ذلك لاني مسلم، وايماني بالقرآن ايمان عميق، وهو اول كتاب قرأته على الاطلاق، واقترنت مدة حفظي له بذكريات جميلة وبريئة اعد منها ولا اعدها؛ ام لما اجد فيه من معارف واسرار، يتمثل فيها كل ما قرأته من ابحاث فلسفية وادبية وخلقية وطبعية وغيرها في اسلوب يخلب اللب، ويستهوي القلب؟..

على كل حال، الغاية التي من اجلها يقرأ الانسان: وهي لذة العقل، وتكميل النفس، هي ما اجد في القرآن دائما وابدا؛ ولذلك اقول: انه احسن كتاب قرأته واقرأه على الاطلاق!

وثاني كتاب، يحتفظ بمكانة مكينة في نفسي وهو الوحيد من الكتب المؤلفة الذي اكون قرأته مرارا متعددة، كتاب (صحيح البخاري). فهو كتاب دين وشريعة وادب واخلاق وحكمة وسير ورقائق واخبار معاد. ويرجع بعض اعجابي به لصنيع مؤلفه؛ ولذلك فهذا القدر لا يدركه الا من درس حظا من علوم الحديث ودرس غير (صحيح البخاري) من كتب السنة، والبعض الآخر لما في كلام النبوة من الحلاوة والقبول وسذاجة الاخلاص وروح الطمأنينة وغير ذلك كما قال القائل:

وما سمعت اذن كلاما ونغمة　　ألذ وأشهى من حديث محمد

واني لاعرف ابوابا فيه كلما قرأتها ابكي؛ واخرى تضحكني، واخرى تهدئ اعصابي. ولو كانت في اشد الاضطراب واخرى تبعثني على الرجاء، ولو كنت في اشد حالات القنوط واخرى! واخرى! ومن غير هذا فليس ثم كتب اقول اني قرأتها مرتين او ثلاثا، اللهم الا كتب الدراسة، وما يكون في نيتي ان اعيد قراءته حينما تمكنني الفرصة. ومن هذه الكتب (سر تقدم الانجليز) السكسونيين ترجمة احمد فتحي زغلول، فان هذا الكتاب بصرني بكثير من الحقائق في تقدير الحضارة

العصرية بمقاديرها الحقيقية، وصرت اعرف قيم الثقافات المعاصرة، وما تؤثره في النفس والسلوك. واني وان قرأت بعده ابحاثا اخرى في موضوعه الا اني لا ازال اراه مجليا في هذا الباب.

وكتاب آخر، دائما اجعله على مقربة مني لاتمكن من مراجعته هو: (صيد الخاطر) لابن الجوزي، فهذا الكتاب مجموعة آراء مرسلة في العلم والتربية والدين والاجتماع؛ ولكنه كتاب مؤثر جدا، ومعين على تكميل النفس وتربية الارادة، وتكوين مبدأ سام لقارئه. وقد قرأته قبل مدة قريبة وكان ما يصادفني فيه من الانظار كأنه يعبر عما يجول بنفسي منذ سنين عديدة

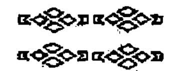
وان انس لا انس فضل مؤلفات الشيخ الامام محمد عبده والاستاذ الكبير محمد فريد وجدي، والسيد محمد رشيد رضا والشيخ مصطفى الغلاييني، ورفيق بك العظم، والعلامة محمد كرد علي، التي بها امكنني ان اعرف قيمة الثقافة الاسلامية والحضارة العربية، واقارنهما بغيرهما من الثقافات والحضارات، واكون لنفسي بعض الافكار عما قرأته على الطريقة القديمة: من كتب التشريع الاسلامي وكتب الكلام والتصوف.

اما في الادب الحديث، والنقد والقصة، فمن احسن ما قرأته واستفدت منه كثيرا كتب العقاد والرافعي وطه حسين ولطفي جمعة وهيكل والمازني وزكي مبارك ومجلة الهلال

والمقتطف والرسالة... ولا اخصص شيئا من كتب هؤلاء فانها كلها جميلة ومفيدة.

بقيت المباحث السياسية، وتاريخ الامم الاسلامية ونهضاتها ومما اقدمه على غيره في هذا الباب، كتابات جمال الدين الافغاني، والكواكبي، ومصطفى كامل، والامير شكيب ارسلان، ومحب الدين الخطيب، وصديقنا احمد توفيق المدني

ولا اختم الكلام بدون ان اشيد بآثار فقيد الشمال الافريقي العلامة المجاهد. المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس التي كان لها كثير من الاثر في توجيهي وانارة الطريق امامي الى كثير من الخير.



هل الثقافة في أزمة ؟

اقرأ في هذه الفترة الكاتب الفرنسي جورج دوهاميل في كتابه (دفاع عن الادب) الذي اخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر في حلة عربية قشيبة ، وهو يرى ان الكتاب في أزمة واذ يقول الكتاب يعني الثقافة ، لان الكتاب هو وسيلتها العظمى ، واذا كانت الثقافة واداتها الكتاب في ازمة فالحضارة مهددة بالاضمحلال .

ولتصوير هذا الخطر وتقريبه للذهن يفترض دو هاميل ان الورق الذي هو المادة الاولى للكتاب اصيب بآفة او مرض على حد تعبيره هو فانعدمت الكتب ونفدت من ايدي الناس الا يكون ذلك مدعاة للتقهقر والخمول والرجوع بالانسانية المهذبة في حافرة الجاهلية ؟...

نعم ! هذا هو مستقبل الكتاب . وقد أصبح مهددا بطغيان السينما والراديو والجرائد والمجلات عليه وصارت هذه المستحدثات العصرية تنافسه وتصرف وجوه الناس اليها وتحصل على المكانة التي كانت له في نفوس القوم فالكتاب الذي هو الجليس في الوحدة والانيس في الخلوة والذي يقول الشاعر في مجموعاته المختلفة :

لنـا جلساء لا يمـل حديثهـم   الباء مامونون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم من مضى   وفهماً وتاديباً ورأيـاً مسددا

هذا الكتاب قد استبدت السينما بالساعتين اللتين كان الانسان يقضيهما في الاستفادة منه والانقطـاع اليه، وحينما ياتي هذا الانسان من دار السينما متعبا مجهودا تقدم اليه آلـة الراديو تسلية جديدة من موسيقى واخبار واحاديث عابـرة لا تفيد علما ولا تكسب تهذيبا والجريدة في الصباح تغزو صاحبنا قبل نهوضه من النوم، فلا تترك له مجالا لاحتضان الكتـاب والتفكير فيما يحويه من خطأ او صواب، اما المجلة فالاسبوعية منها كالجريدة وذلك في كونها تزجيه للوقت وكما مهملا لا ياخذ طريقه الى المكتبة بـل الى الافران، الا اذا كانت هذه المجلة موجهة توجيها ادبيا او علميا ـ وذلك قليل ـ فانها تبقى واسطة بين الجريدة والكتاب ويمكن ان نحتفظ بها في رفوف مكاتبنا ونرجع اليها في الحين بعد الحين.

اذا فإلى اين تسير الانسانية وهذه افكارها تتحجر من عدم الاستعمال؟ وكيف يكون مستقبل الحضارة وقد قنع الانسان بهذه التغذية العقلية التافهة؟...

أحاديث الراديو مشاهدات السينما، مقـالات الجرائـد السطحية التي تقـرأ في الميترو، وفترات الانتظار. والجلوس على مقاعد القهوات أثناء صخب الجمهور ولغب الحضور، هذه هي

وسائل التثقيف التي يستبدل بها انسان ما بعد الحرب الذرية الكتاب فالى اية هوة تقوده من الجهل والعمى وتبلد الذهن وكثافة الاحساس؟ وبالتالي الا يكون مصير هذه الحضارة التي ينعم بها الانسان اليوم الى الفناء والعدم فيما لو استمر اعراضه عن الكتاب كما لو اصابت المكتبة العالمية آفة قضت عليها قبل ان نتمكن من انقاذها!...

وعرض دوهاميل للمشكلة هو من القوة بحيث لا يمكن لقارئه ان يمر بها مر الكرام ولا يفكر التفكير الجدي فيما تتطلبه من حلول، وتقتضيه من تدابير، وهو يورد اثناء ذلك بعض الشواهد على صحة ما يقول من حالة الادب والكتابة واقبال الناس على القراءة في فرنسا فيقول ان الكساد قد عم سوق الكتب ودور النشر تتعرض للخسائر الدائمة والتصدير لهذه البضاعة قد قل بل انعدم مطلقا، فصار الاستهلاك لها قاصرا على البلاد الفرنسية وحدها.

ويتخذ دليلا على هذا الكساد وضعف الاقبال على الكتب هذه الاعلانات الكثيرة التي يلجأ اليها الناشرون ويتنوقون في صفاتها لاسترعاء نظر القارئ الى الكتاب وهذا التوزيع المسرف للكتب على باعة الدخان والنبيذ ومحطات القطار وغيرها لعرضه على الانظار وتسهيل اقتنائه لكل احد وهذا المظهر ربما يفهم منه الانسان العادى ان الكتاب قد اكتسح جميع الميادين وراج حتى خرج من محله المعتاد وهو المكتبة

الى كل محل والامر على العكس، اذ كساد الكتاب هو الذى جعل الناشر يضعه بين ايدى الناس في كل مكان، علهم يلتفتون اليه ويقتنون منه نسخة في هذا المكان او ذاك.

ويدعـم هذا النظر بما يتخذه بعض الكتبيين (في فرنسا طبعا) من وسائل لترغيب الناس في شراء الكتب كأن يقدموا للمشتري هدية او هدايا بقدر ما اشترى من الكتب وعادة تكون هذه الهدية شيئا آخر غير مكتوب اي شيئا ماديا لا روحيا من جنس الكتاب وذلك كصابون الحلاقة ومعجون الاسنان ونحو ذلك وبعضهم يقدم للزبائن شايا ومشروبات روحية، وهذا كثير في فرنسا فلذلك ترى الكاتب يستنكره ويستدل بكل ذلك على الكساد والافلاس واغرب من هذا كله ما يلجأ اليه بعض الكتبيين من وسيلة اهداء الكتاب من المؤلف للمشتري ليحملوه بذلك على الشراء، وذلك انهم يلتزمون للمشتري حالة دفعه للثمن بعبارة الاهداء مخطوطة من المؤلف فاذا كان امضاء ممثلة من فتيات هوليوود يساوي المئات وربما الالوف من الدولارات فهل يكون دوهاميل على حق في اشفاقه من اختفاء الكتاب وقد صار المؤلف الى هذا الحد من البوار ؟

اما ان هذا مؤسف، ولكننا لا نتشاءم لمستقبل الكتاب الى هذا الحد، والراديو وان يكن صندوق الضوضاء كما يسميه دوهاميل، فانه يؤدي للانسانية خدمات جلى في المكان

الذي لا يقدر الكتاب ان يعمل شيئاً، خذ مثالاً الاميين، بل خذ الشيوخ والعجزة الذين ضعفت اعصابهم وقوة ابصارهم عن القراءة، فهؤلاء ليس لهم ملجأ للتسلية والتثقيف الا الراديو، والمؤلف نفسه يحكي حكاية طريفة عن عجوز لم تعد تستطيع ان تقرأ بسبب ضعف بصرها، وكانت سيدة مثقفة، فكانت تقطع ساعات فراغها في وجوم وانقباض حتى اهدى لها احد قرابتها آلة راديو فعكفت عليها، وانشرحت نفسها، وكانت وهي تنصت الى الاحاديث المنوعة تعلق عليها، وتأمر القارئ بقولها قف حتى اتأمل، او اعد ما قلت، كانها تنصت الى قارئ بجانبها، ولكن انى لها ذلك والراديو لا يسمع ولا يتأنى؟....
وهذا هو عيبه في نظر دوهاميل الذي يناصر القراءة المتأنية التي تدعو الى التفكير ومناقشة الاراء والاخذ والرد.

على كل حال فانه على ما اخذت السينما، واخذ الراديو واخذت الجرائد من الرواد والمنصتين والقراء فان الكتاب سيبقى له اهله ومحبوه وانصاره المخلصون، وهم الآن موجودون بالفعل، لا تستهويهم هذه المستحدثات، ولا تاخذ من وقتهم الا ما فضل عن قراءتهم، وفي ظني ان اكثرية اولئك الذين يقبلون على هذه المخترعات هم من كانوا بطالين، بمعنى انهم لا يهتمون بالقراءة والكتاب والثقافة العميقة، وانما دأبهم غشيان المجامع العامة والاندية والمشارب، فلما استحدثت دور السينما عوضوها مما كانوا يرتادونه، فلم يكن فيهم من يعتد بانصرافه عن الكتاب.

ونرجع الى ما لاحظه المؤلف من كساد سوق الكتب في فرنسا وقلة التصدير، فلعله راجع الى ظروف الحرب، وروح الشك وضعف الايمان بالقيم الاخلاقية التي انبثت بسببها في مختلف الاوساط. ولعله راجع الى ضروب الحصار التي كانت تقيمها الدول النازية والفاشيستية ضد كل الافكار المعادية والمبادئ المخالفة لمناهجها وطرق حكمها، فضلا عن صعوبة التبادل الثقافي بسبب نظام حصر العملة الذي يقضي به الاقتصاد المسير، او لعله راجع الى ضعف قيمة الانتاج الفرنسي من الناحية الادبية بسبب الانحلال الاجتماعي الذي تتخبط فيه العائلة الفرنسية او لعله ناشئ عن السمعة السيئة التي صارت لفرنسا في الخارج بسبب سياستها العدوانية في المستعمرات وغيرها، وقد يكون راجعا الى هذه العلل كلها. فما ندري ايها اولى واقوى في التاثير من غيره !..

بقي ان نقول كلمة موجزة في المقارنة بين ما يحكيه المؤلف من وسائل الترغيب التي يتخذها باعة الكتب في فرنسا وبين النوم المطبق الذي يخيم على باعة الكتب عندنا مع ترك اعتبار الفارق بين الاستهلاك عندهم وعندنا، ولكن مع هذا فان اقبال القارئ العربي على الكتاب الجديد القيم يكاد يكون تاما بحيث لا نرى محلا للتشاؤم وللتساؤل هل الكتاب العربي وبالحري الثقافة العربية في أزمة ؟.....

تصويبات

وقعت اغلاط مطبعية قليلة في الكتاب رأينا ان ننبه على المهم منها وندع غيره لفطنة القارئ اللبيب:

صفحة	خطأ	صواب
3	مائلة	ماثلة
4	الادب	للأدب
14	في كتاباته	في بعض كتاباته
34	وتزوج	وتزوجها
48	بركر	بكر
»	عبد الحكيم	عبد الحكم
66	الاسلامية	اللامية
84	صافية	صافيته
88	نفسه	نفسي
96	فطامنني	فطمأنني
105	اثر	آثار
160	ينشره	بنشره
163	وحدد	وحده
164	تصفحت	تصحفت
175	الجمال	الخيال

فهرست

صفحة